معالم في السلوك وتزكية النفوس

جمع وإعداد
عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ

٢١٢,٢ آل عبد اللطيف، عبد العزيز بن محمد
٣٦٤ع معالم في السلوك وتزكية النفوس / عبد العزيز بن محمد بن علي آل عبد اللطيف ـ ط١ . ـ الرياض: دار الوطن، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
١١٢ ص ؛ ١٧×٢٤ سم.
ردمك ٣ـ٠٨ـ٦٩٠ـ٩٩٦٠
١ ـ الأخلاق الإسلامية ٢ ـ التربية الإسلامية
أ . العنوان

رقم الإيداع ٢٣٩ . / ١٤
ردمك ٣ـ٠٨ـ٦٩٠ـ٩٩٦٠

الجمع التصويري والإخراج ـ *الفرقان* ٤٠٢٩٨٦٥ـ٤٠٤٣٧٣٢

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

إنّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعـد:

فإن السلوك الصحيح وتـزكية النفـوس من أعـظم أمـور الـدين، وأجلّ خصـاله، حيث اهتم سلفنا الصالح بالسلوك الشرعي علمـًا وعملاً، فالسلوك الظاهر ملازم للإيمان الباطن، وصلاح الظاهر ناشيء عن صلاح الباطن، وكذا العكس.

ومع شدة الحاجة إلى فقه السلوك علمـًا وعملاً، فإننا قد لانجد كتابات معـاصرة تعالج الجانب السلوكي من خلال منهج أهل السنة، إضافة إلى كثرة المخـالفـات والانحرافات للسلوك السويّ من قبل أعداد كبيرة من أهل السنة، فضلاً عن غيرهم.

ولأجل ذلك رغبت أن أسهم في خدمة هذا الجانب، فيسر الله تعالى بمنّه وتوفيقه جمع هذا الكتاب وإعداده.

ويتضمن هذا الكتاب قسمين، أحدهما: معالم في السلوك وتزكية النفوس، وهو عبارة عن لمحات في منهج السلف في تقرير السلوك.

ولمـا كان السلوك ـ عنـد السلف ـ يعدّ إيمانـًا ودينـًا، فإننا نراهم يفردونه بكتب مستقلة، بل ويوردون الجوانب السلوكية ضمن كتب العقيدة؛ لأن السلوك وما يتعلق بالصفات الأخلاقية من شُعَب الإيمان وخصاله، فلا تنفك عنه.

لقد كان للنزعة الإرجائية الكلامية أثر ظاهر في إهمال موضوعات السلوك والأخلاق، فلما كان الإيمان ـ عندهم ـ تصديقًا فحسب، أهملوا أعمال القلوب والجوارح. ولما كان توحيدهم ـ فقط ـ هو توحيد اعتقاد الربوبية لله تعالى، أعرضوا عن توحيد العبادة والإرادة والطلب، وما يتبعه من الجوانب السلوكية والأخلاقية.

وأما القسم الآخر فهو نماذج مختارة لموضوعات سلوكية، وقد اقتصرت على خمسة موضوعات، وهي: أهل السنة يعلمون الحق ويرحمون الخلق، وتزكية النفوس، وأعمال القلوب، ومكايد الشيطان، والإخلاص والعجب.

وقد حرصت على الاختصار، مع التفصيل ـ أحيانًا ـ لبعض المسائل التي قد تخفى على الكثير وأوردت في تلك الموضوعات أمثلة عملية وأقوالاً مأثورة من حياة السلف الصالح، وما كان عليه القوم من سلوك صحيح، وإخلاص لله تعالى، وتحقيق العبودية التامة لله وحده لا شريك له.

وعندما نورد تلك الأمثلة الواقعية من حياة السلف الصالح، **فإننا «نستغفر الله من الكلام فيما لسنا بأهل له»**[1].

وإذا كان الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يسئل عن أخلاق الورعين، فيقول: «أسأل الله أن لا يمقتنا»[2].

فكيف بحالنا نحن الضعفاء المذنبين؟

لا تعرضنَّ لذكرنا في ذكرهم ليس الصحيحُ إذا مشىٰ كالمقعدِ

إن الكاتب في مثل تلك الموضوعات السلوكية قد يجد شيئاً من التردد والإحجام، ويخشىٰ أن يُلبّس عليه الشيطان من خلال هذا الباب، فإن من كيد إبليس على المشتغلين والمتكلمين في الزهد والسلوك أن يلبِّس عليهم أنكم من جملة

---

(١) قالها ابن القيم في طريق الهجرتين ص٣٣٣.

(٢) سير أعلام النبلاء ١١/٢٢٦.

الموصوفين بذلك، لأنك لم تقدر على الوصف حتى عرفتَ ما تصف وسلكت الطريق[١]...

ومع ذلك فلا يلزم - ضرورة - أن من وضّح السلوك الصحيح أن يكون عاملاً به، لكن قد يكون وصفه وبيانه للسلوك الصحيح - وإن كان مقصراً في العمل - سببًا في الاستقامة على هذا السلوك، والاستحياء من الله عز وجل.

فإن المتعيّن على الدعاة أن يبيّنوا الحق، ويدلّوا الناس على السلوك الشرعي، وإن لم يحققوه عملاً، وكما قال سعيد بن جبير - رحمه الله -: «**لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهىٰ عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء، ما أمر أحد بالمعروف، ولا نهىٰ عن منكر**»[٢].

أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا، وأن يجعل عملنا خالصًا صوابًا، وأن يحشرنا مع النبيين والصدّيقين والشهداء وبالله التوفيق وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر تلبيس إبليس ص١٣٦.

(٢) ذكر العلماء أنه ليس من شرط الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر العصمة من الذنوب.. انظر: تفسير ابن كثير ١/٨٢، الإحياء للغزالي ٢/١٧٢، تفسير القرطبي ١/٣٦٦.

أهمية الموضوع :

تتجلىٰ أهمية هذا الموضوع من خلال الأمور التالية :

١ ـ **اهتم السلف الصالح بتزكية النفوس**، واعتنوا بالجانب السلوكي والأخلاقي علمًا وفقهًا، كما حققوه عملاً وهديًا، فأفردوا كتبًا مستقلة في الزهد والرقائق ونحوهما بل إن أئمة السلف يوردون الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة في ثنايا كتب العقيدة.

كما قال الإسماعيلي (ت ٣٧١هـ) في اعتقاد أهل السنة :

«ويرون مجانبة البدعة والآثام، والفخر، والتكبر، والعُجْب، والخيانة، والدغل، والاغتيال، والسعاية.

ويرون كف الأذى، وترك الغيبة، إلا لمن أظهر بدعة وهوى يدعو إليهما، فالقول فيه ليس بغيبة عندهم»[١].

وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل الصابوني (ت ٤٤٩هـ) في عقيدة السلف :

«ويرون المسارعة إلى أداء الصلوات المكتوبات، وإقامتها في أوائل الأوقات أفضل من تأخيرها إلى آخر الأوقات. . .

ويتواصون بقيام الليل للصلاة بعد المنام، وبصلة الأرحام، وإفشاء السلام وإطعام الطعام، والرحمة على الفقراء والمساكين والأيتام، والاهتمام بأمور المسلمين، والتعفف في المأكل والمشرب والملبس والمنكح، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والبدار إلى فعل الخيرات أجمع، ويتحابون في الدين ويتباغضون فيه، ويتقون الجدال في الله، والخصومات فيه، ويجانبون أهل البدع والضلالات، ويعادون أصحاب الأهواء والجهالات»[٢].

---

(١) اعتقاد أهل السنة للإسماعيلي ص٥٣.

(٢) عقيدة السلف أصحاب الحديث للصابوني ص٩٧-٩٩ باختصار يسير.

وقال قوام السنة إسماعيل بن محمد الأصفهاني (ت ٥٣٥هـ):

«ومن مذهب أهل السنة التوّرع في المآكل والمشارب والمناكح، والتحرز من الفواحش والقبائح، والتحريض على التحابّ في الله عز وجل، واتقاء الجدال والمنازعة في أصول الدين، ومجانبة أهل الأهواء والضلالة، وهجرهم ومباينتهم، والقيام بوفاء العهد والأمانة، والخروج من المظالم والتبعات، وغضّ الطرف عن الريبة والحرمات، ومنع النفس عن الشهوات، وترك شهادة الزور، وقذف المحصنات، وإمساك اللسان عن الغيبة والبهتان، والفضول من الكلام، وكظم الغيظ والصفح عن زلل الإخوان، والمسابقة إلى فعل الخيرات، والإمساك عن الشبهات وصلة الأرحام، ومواساة الضعفاء، والنصيحة في الله والشفقة على خلق الله، والتهجد لقيام الليل لا سيما لحملة القرآن، والبدار إلى أداء الصلوات»[١].

وذكر ابن تيمية ـ رحمه الله ـ جملة من الصفات السلوكية والأخلاقية لأهل السنة، ومن ذلك قوله:

«يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله ﷺ: «**أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا**»[٢]، ويندبون أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك، ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامىٰ والمساكين وابن السبيل والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق وينهون عن سفاسفها»[٣].

---

(١) الحجة في بيان المحجة ٢/٥٢٨.

(٢) أخرجه أحمد ٢/٤٧٢، والترمذي، ح(١١٦٢).

(٣) العقيدة الواسطية (شرح محمد هراس) ص١٧٢، ١٧٣.

٢ ـ **هناك تلازم بين السلوك والاعتقاد**، فالسلوك الظاهر مرتبط بالاعتقاد الباطن، ومن ثم فإن الانحراف الواقع في سلوكنا وأخلاقنا الظاهرة إنما هو ناشيء عن نقص في إيماننا الباطن.

يقول ابن تيمية موضحاً هذا التلازم:

«إذا انقصت الأعمال الظاهرة الواجبة، كان ذلك لنقص ما في القلب من الإيمان، فلا يتصور مع كمال الإيمان الواجب الذي في القلب أن تعدم الأعمال الظاهرة الواجبة، بل يلزم من وجود هذا كاملاً وجود هذا كاملاً، كما لزم من نقص هذا نقص هذا، إذ تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل، كتقدير موجب بلا موجبه، وعلة تامة بلامعلولها، وهذا ممتنع»[١].

ويقول أيضاً: «وإذا قام بالقلب التصديق به، والمحبة له، لزم ضرورة أن يتحرك البدن بموجب ذلك من الأقوال الظاهرة والأعمال الباطنة، فما يظهر على البدن من الأقوال والأعمال هو موجب ما في القلب ولازمه، ودليله ومعلوله، كما أن ما يقوم بالبدن من الأقوال والأعمال له أيضًا تأثير فيما في القلب، فكل منهما يؤثر في الآخر، **لكن القلب هو الأصل والبدن فرع له، والفرع يستمد من أصله، والأصل يثبت ويقوىٰ بفرعه**»[٢].

ويقول الشاطبي في هذه المسألة:

«الأعمال الظاهرة في الشرع دليل على ما في الباطن، فإن كان الظاهر منخرماً، حكم على الباطن بذلك، أو مستقيماً حكم على الباطن بذلك أيضاً، وهو أصل عام في الفقه، وسائر الأحكام العاديّات، والتجريبيّات، بل الالتفات إليها من هذا الوجه نافع في جملة الشريعة جدًّا»[٣].

---

(١) مجموع الفتاوى ٥٨٢/٧، وانظر ٦١٦/٧، ٦٢١، وشرح الأصفهانية ص١٤٢.

(٢) مجموع الفتاوى ٥٤١/٧.

(٣) الموافقات ٢٣٣/١.

إضافة إلى ذلك، فإن الإيمان إذا جاء مطلقًا ومجرداً، فإنه يندرج فيه السلوك والأخلاق وسائر الأعمال الصالحة، كما في حديث شُعب الإيمان ـ مثلاً ـ حيث قال ﷺ:

«الإيمان بضع وسبعون شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق»(١).

وكما يقول ابن تيمية:

«اسم الإيمان يستعمل مطلقًا، ويستعمل مقيدًا، وإذا استعمل مطلقًا فجميع ما يحبه الله ورسوله من أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة، يدخل في مسمىٰ الإيمان عند عامة السلف والأئمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم الذين يجعلون الإيمان قولاً وعملاً... ودخل في ذلك ما قد يسمىٰ مقاماً وحالاً، مثل الصبر، والشكر، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرضا، والخشية، والإنابة، والإخلاص، والتوحيد وغير ذلك»(٢).

٣ ـ يترتب على تحقيق الجانب الخلقي السلوكي الأجر الكثير والثواب الجزيل، كما دلت على ذلك النصوص الشرعية.

فقد عدّ الله تعالى في كتابه مخالقة الناس بخلق حسن من خصال التقوىٰ، بل بدأ بذلك في قوله: ﴿**أُعدت للمتقين. الذين ينفقون في السراءِ والضراءِ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين**﴾ [آل عمران، آية ١٣٣، ١٣٤].

وقد جعل رسول الله ﷺ حسن الخلق أكمل خصال الإيمان فقال: **«أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقًا»**(٣).

---

(١) أخرجه البخاري، ك الإيمان، ح(٩)، ومسلم، ك الإيمان، ح(٣٥).

(٢) مجموع الفتاوىٰ ٧/٦٤٢، وانظر ٧/٥١٥.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٤٧٢، وأبو داود، ح(٤٦٨٢)، والترمذي ح(١١٦٢).

كما أخبر النبي ﷺ أن صاحب الخلق الحسن يبلغ بخلقه درجة الصائم القائم فقال: «**إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجات الصائم القائم**»(١).

وجاء في أحاديث أخرىٰ أن حسن الخلق أثقل ما يوضع في الميزان، وأن صاحبه أحبّ الناس إلى الله وأقربهم من النبيين مجلساً.

فقال ﷺ: «**ما من شيء يوضع في الميزان أثقل من حسن الخلق**»(٢).

وقال ﷺ: «**ألا أخبركم بأحبكم إلى الله وأقربكم مني مجلسًا يوم القيامة؟ قالوا: بلى. قال: أحسنكم خُلُقًا**(٣)»(٤).

قال ابن القيم رحمه الله: «الدين كله خُلُق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين»(٥).

وقال ابن رجب رحمه الله ـ عند شرحه لقوله ﷺ: «**وخالق الناس بخلق حسن**»(٦).

«هذا من خصال التقوىٰ، ولا تتم التقوىٰ إلا به، وإنما أفرده بالذكر للحاجة إلى بيانه، فإن كثيراً من الناس يظن أن التقوىٰ هي القيام بحق الله دون حقوق عباده، فنصّ له على الأمر بإحسان العشرة للناس، فكثيراً ما يغلب على من يعتني بالقيام بحقوق الله، والانعكاف على محبته وخشيته وطاعته إهمالُ حقوق العباد بالكليّة أو التقصير فيها، والجمع بين القيام بحقوق الله وحقوق عباده عزيز جدًا

---

(١) أخرجه أحمد ٦/٩٤، وأبو داود ح(٤٧٩٨).

(٢) أخرجه أحمد ٦/٤٤٢، وأبو داود ح(٤٧٩٩)، والترمذي ح(٢٠٠٤) وقال: حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان ح(٤٧٨).

(٤) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب (١/٤٥٤ ـ ٤٥٦)، ومدارج السالكين (٢/٣٠٤ ـ ٣٠٧).

(٥) مدارج السالكين ٢/٣٠٧.

(٦) جزء من حديث أخرجه أحمد (٥/١٥٣)، والترمذي ح(١٩٨٧)، والدارمي (٢/٣٢٣).

لا يقوىٰ عليه إلا الكُمَّل من الأنبياء والصديقين[١].

٤ ـ **وإذا كان سلفنا الصالح قد اعتنوا كثيراً بالسلوك علمًا وعملاً**، لأهميته وقيام التلازم بين السلوك الظاهر والإيمان الباطن، إضافة إلى الوعد الكريم والأجر الكبير لأصحاب السلوك الشرعي.

مع ذلك كله فإن الناظر إلى واقع الكثير منا ـ معشر المنتسبين لأهل السنة ـ يرىٰ تقصيراً وتهاونًا في هذا المجال، فأنت تشاهد تفرقًا وخصومة، وجدلاً ومراءً، وأهواء وشهوات ولا حول ولا قوة إلا بالله.

---

(١) جامع العلوم والحكم (١/٤٥٤).

القسم الأول

معالم في منهج السلوك والأخلاق

معالم في منهج السلوك والأخلاق

من خلال استقراء جملة من كتب السلف الصالح في السلوك والرقائق يمكن أن نستخلص المعالم التالية:

١ ـ **إن مصدر تلقي السلوك**[١] والأخلاق عند السلف الصالح هو الكتاب والسنة، فإنهم أهل اتباع، وأرباب طريقة أثرية.

قال تعالى: ﴿**ونزّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكلِّ شيء**﴾ [النحل، آية ٨٩].

وقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمرِ منكم فإن تنازعتم في شيء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلاً**﴾ [النساء، آية ٥٩].

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: «لقد تركنا محمد ﷺ وما يحرك طائر جناحيه في السماء إلا أذكرنا منه علمًا»[٢].

---

(١) **السلوك لغة**: مصدر سَلَك أي دخل، **ويقال**: سلكت الخيْط في المخيط أي أدخلته فيه، **والمسْلَك**: الطريق، وأمرهم سُلْكى: على طريقة واحدة (انظر: لسان العرب ١٠/٤٤٢، ٤٤٣ = باختصار)، ويطلق السلوك على سيرة الإنسان ومذهبه واتجاه (انظر المعجم الوسيط ١/٤٤٧). **وأما تعريف السالك** ـ عند ا لصوفية ـ فهو السائر إلى الله، المتوسط بين المريد والمنتهي (انظر اصطلاحات الصوفية للكاشاني ص١٥٥، والتعريفات للجرجاني ص١١٦)، والمقصود بالسلوك ـ ها هنا ـ ما يتعلق بالجانب العملي من الأمور التعبدية والأخلاقية، والمقيدة بالهدي النبوي والسمت الشرعي ـ كما هو موضح في الصفحات التالية.

(٢) أخرجه أحمد ٥/١٥٣.

يقـول ابن تيمية: «إن السلوك هو بالطريق التي أمر الله بها ورسوله من الاعتقادات والعبادات والأخلاق، وهذا كله مبين في الكتاب والسنة، فإن هذا بمنزلة الغذاء الذي لابد للمؤمن منه.

ولهذا كان جميع الصحابة يعلمون السلوك بدلالة الكتاب والسنة والتبليغ عن الرسول، لا يحتاجون في ذلك إلى فقهاء الصحابة...

وفي السلوك مسائل تنازع فيها الشيوخ، لكن يوجد في الكتاب والسنة من النصـوص الـدالـة على الصـواب في ذلك ما يفهمه غالب السالكين، **فمسائل السلوك من جنس مسائل العقائد كلها منصوصة في الكتاب والسنة**»(١).

ويقول أيضاً: «العلم المشروع والنسك المشروع مأخوذ عن أصحاب النبي ﷺ، فمن بنىٰ الكلام في العلم ـ الأصول والفروع ـ على الكتاب والسنة والآثار المأثورة عن السابقين فقد أصاب طريق النبوة، وكذلك من بنى الإرادة والعبادة والسماع المتعلق بأصول الأعمال وفروعها من الأحوال القلبية والأعمال البدنية على الإيمان والسنـة والهـدىٰ الذي كان عليه محمد ﷺ وأصحابه فقد أصاب طريق النبوة، وهذه طريقة أئمة الهدىٰ»(٢).

وعندما ذكر الإمام الذهبي السلوك الصحيح، نجده لا يورد إلا ما دلّ عليه الدليل، كما هو ظاهر مقالته الآتية:

«السلوك الكامل هو الورع في القوت، والورع في النطق، وحفظ اللسان، ومـلازمـة الـذكـر، وترك مخالطة العامة، والبكاء على الخطيئة، والتلاوة بالترتيل والتدبر، ومقت النفس وذمها في ذات الله، والإكثار من الصوم المشروع، ودوام التهجد، والتواضع للمسلمين، وصلة الرحم، والسماحة وكثرة البِشْر، والإنفاق

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٩/٢٧٣، ٢٧٤ـ باختصار.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٠/٣٦٢، ٣٦٣ـ باختصار يسير، وانظر ١٠/٤٨٦.

مع الخصاصة، وقول الحق المر برفق وتؤدة، والأمر بالعرف، والأخذ بالعفو، والإعراض عن الجاهلين والرباط بالثغر، وجهاد العدو، وحج البيت، وتناول الطيبات في الأحايين، وكثرة الاستغفار في السحر، فهذه شمائل الأولياء، وصفات المحمديين، أماتنا الله على محبتهم»(١).

ويقرر ابن القيم أن السلوك وتزكية النفوس لا يكون إلا عن طريق الرسل عليهم السلام فيقول: «**وتزكية النفوس مسلّم إلى الرسل**، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم دعوة، وتعليمًا، وبيانًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم. قال الله تعالىٰ: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياتِه ويزكيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين**﴾ [الجمعة، آية ٢].

وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكّىٰ نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم، والله المستعان»(٢).

وهذا السلوك الشرعي على مرتبتين كما قرره ابن تيمية بقوله:

«والسلوك سلوكان: سلوك الأبرار أهل اليمين، وهو أداء الواجبات وترك المحرمات باطناً وظاهراً.

والثاني: سلوك المقربين السابقين وهو فعل الواجب والمستحب بحسب الإمكان، وترك المكروه والمحرم، كما قال النبي ﷺ: «**إذا نهيتكم عن شيء**

---

(١) سير أعلام النبلاء ١٢/ ٩٠، ٩١.

(٢) مدارج السالكين ٢/ ٣١٥.

فاجتنبوه وإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم»[١][٢]».

وإذا كان عامة من ضل في باب الاعتقاد بسبب الإعراض عن ما جاء به الرسول[٣]، فكذلك الضلال في باب السلوك، إنما كان ناشئًا ـ في الجملة ـ بسبب الإعراض عن نصوص الوحيين، كما هو ظاهر في متأخري الصوفية، وأرباب الطرق المحدثة[٤].

قال تعالى: ﴿**فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضلُّ ولا يشقىٰ. ومن أعرضَ عن ذكري فإن له معيشةً ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمىٰ. قال ربِّ لم حشرتني أعمىٰ وقد كنتُ بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تُنسىٰ**» [طه: آية ١٢٣ ـ١٢٦].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تكفّل الله لمن قرأ القرآن وعمل به، أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقىٰ في الآخرة، ثم قرأ هذه الآية»[٥].

بل إن البدع في باب السلوك أكثر من البدع الاعتقادية، كما بيّن ذلك ابن تيمية بقوله: «ولا ريب أن البدع كثرت في باب العبادة والإرادة أعظم مما كثرت في باب الاعتقاد والقول؛ لأن الإرادة يشترك الناس فيها أكثر مما يشتركون في القول، فإن القول لا يكون إلا بعقل، والنطق من خصائص الإنسان، وأما جنس الإرادة

---

(١) أخرجه البخاري ح(٧٢٨٨)، ومسلم ح(١٣٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٤٦٣.

(٣) انظر: درء تعارض العقل والنقل ١/٥٤، ١٦٦، ٢٠٩، ومجموع الفتاوىٰ ٣/٣١٤، وشرح الطحاوية ١/٨.

(٤) مما يجدر ذكره أن المتقدمين من أرباب الزهد والتعبد كالفضيل، وإبراهيم بن أدهم، والجنيد، وسهل التستري، وسليمان الداراني وأمثالهم، كانوا من أحرص الناس على لزوم السنة والاتباع، ومجانبة الأهواء والابتداع. انظر توضيح ذلك في: الاستقامة لابن تيمية ٢/٨١، ٥٩٥، ٦٥٠، والاعتصام ١/١٩٩-١٣٢، ومدارج السالكين ٢/٤٦٤-٤٦٨، ٣٤٨.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٨١، وصححه ووافقه الذهبي.

فهو مما يتصف به كل الحيوان، فما من حيوان إلا وله إرادة. .»[١].

لقد صنّف متأخرو الصوفية كتبًا كثيرة في السلوك، وغلب على تلك الكتب قلة العلم بالسنن والآثار، وكثرة الموضوعات، والتعويل على أخبار متأخري الزهاد، ومع ذلك فلا تخلو تلك الكتب من حق وصواب[٢].

وسمّىٰ أرباب الطرق الصوفية ما أحدثوه من البدع «حقيقة»، فطريق الحقيقة عندهم هو السلوك الذي لا يتقيد صاحبه بأمر الشارع ونهيه[٣]، بل قدموا أذواقهم ومواجيدهم وكشوفاتهم الباطلة على نصوص الوحيين[٤].

يقول ابن تيمية في هذا الصدد:

«من عارض كتاب الله وجادل فيه بما يسميه معقولات وبراهين وأقيسة، أو ما يسميه مكاشفات ومواجيد وأذواق، من غير أن يأتي على ما يقوله بكتاب منّزل فقد جادل في آيات الله بغير سلطان، هذا حال الكفار الذين قال فيهم: ﴿**ما يجادلُ في آيات الله إلا الذين كفروا**﴾ [غافر، آية ٤]. فهذه حال من يجادل في آيات الله مطلقًا»[٥].

وقال ابن القيّم ـ مبينًا خطورة الابتداع في السلوك:

«**وعامة من تزندق من السالكين فلإعراضه عن دواعي العلم**، وسيره على جادة الذوق والوجد، ذاهبة به الطريقُ كل مذهب، فهذه فتنته، والفتنة به شديدة»[٦].

---

(١) مجموع الفتاوى ١٩/ ٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) انظر: تلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٨٤-١٨٦، ومجموع الفتاوىٰ ١٠/ ٣٦٧، ٥٥١، ٦٨٠، ٦٨١، ١١/ ٥٧٩، ٥٨٠.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ ١٠/ ١٦٩.

(٤) انظر تفصيل ذلك في: مدارج السالكين ٢/ ٧٠، ٣٣٤، ٤٩٤-٤٩٦، والصواعق المرسلة ٣/ ١٠٥١، وشرح الطحاوية ١/ ٢٣٥.

(٥) الاستقامة ١/ ٢٢.

(٦) مدارج السالكين ١/ ١٥٨، وانظر إغاثة اللهفان ١/ ١٩٣.

وليس هذا فحسب، بل أوغلوا في الانحراف والإعراض عن هديٰ الله تعالىٰ، حتى قال قائلهم: **حدثني قلبي عن ربي**، وقال بعضهم: نحن نأخذ علمنا من الحي الذي لا يموت، وأنتم تأخذونه من حي يموت، وقال الآخر: العلم حجاب بين القلب وبين الله عزّ وجل، وقال رابعهم: إذا رأيت الصوفي يشتغل بـ «أخبرنا» و«حدثنا» فاغسل يدك منه!!.

قال أبو الوفاء ابن ابن عقيل (ت ٥١٣هـ) في نقد تلك الأقاويل:

«فإذا قالوا [أي الصوفية] عن أصحاب الحديث قالوا: أخذوا علمهم ميتًا عن ميت، فقد طعنوا في النبوات، وعولوا على الواقع، ومتى أزري على طريق، سقط الأخذ به، **ومن قال: حدثني قلبي عن ربي فقد صرح أنه غني عن الرسول، ومن صرح بذلك فقد كفر**، فهذه كلمة مدسوسة في الشريعة تحتها هذه الزندقة، ومن رأيناه يزري على النقل علمنا أنه قد عطلّ أمر الشرع، وما يؤمن هذا القائل: حدثني قلبي عن ربي أن يكون من إلقاء الشياطين، فقد قال الله عز وجل: ﴿**وإن الشياطين ليوحُون إلى أوليائهم**﴾ [الأنعام، آية ١٢١]. وهذا هو الظاهر؛ لأنه ترك الدليل المعصوم وعوّل على ما يلقىٰ في قلبه الذي لم تثبت حراسته من الوساوس»[١].

وقال ابن القيم معلقًا على تلك العبارات:

«ومن أحالك على غير «أخبرنا» و«حدثنا» فقد أحالك إما على خيال صوفي، أو قياس فلسفي، أو رأى نفسي، فليس بعد القرآن و«أخبرنا» و«حدثنا» إلا شبهات المتكلمين، وآراء المنحرفين، وخيالات المتصوفين، وقياس المتفلسفين، ومن فارق الدليل ضلّ عن سواء السبيل، ولا دليل إلى الله والجنة سوى الكتاب والسنة، وكل طريق لم يصحبها دليل القرآن والسنة فهي طريق الجحيم والشيطان الرجيم»[٢].

---

(١) تلبيس إبليس لابن الجوزي ص٤٢٣، ٤٢٤، وانظر الصواعق المرسلة ٤/١٣٤٢-١٣٥٠.

(٢) مدارج السالكين ٢/٤٦٨، ٤٦٩.

فلما أعرض أهل التصوف عن الطريقة النبوية السلفية، تلاعب بهم الشيطان، فأوقعهم في الإفراط والتفريط، فتراهم أصحاب تشدد وتنطع، ورهبانية محدثة، وحديث عن الدقائق من «الوساوس» و«الخطرات»[١].

ثم في المقابل تجدهم أهل سماع بدعي، وأرباب رقص وغناء، ومصاحبة للأحداث، وعشق للصور المحرمة[٢].

قال ابن رجب ـ في بيان حال القوم ـ:

«ومما أحدث من العلوم، الكلام في العلوم الباطنة من المعارف وأعمال القلوب وتوابع ذلك، بمجرد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطر عظيم، وقد أنكره أعيان الأئمة كالإمام أحمد وغيره.

---

(١) سئل الإمام أحمد بن حنبل عن الوساوس والخطرات، فقال: ما تكلّم فيها الصحابة ولا التابعون وإنما ذم الإمام أحمد المتكلمين على الوساوس والخطرات حيث كان كلامهم لا يستند إلى دليل شرعي، بل إلى مجرد رأي وذوق (انظر: مسائل الإمام أحمد. جمع الأحمدي ٢/٢٧٩، وتلبيس إبليس لابن الجوزي ص١٨٦، وجامع العلوم والحكم ٢/١٠٤، والآداب الشرعية٢/٨٨)، **وسئل أبو زرعة عن الحارث المحاسبي وكتبه، فقال للسائل**: إياك وهذه الكتب، هذه كتب بدع وضلالات، عليك بالأثر، فإنك تجد فيه ما يغنيك عن هذه الكتب. **قيل له**: في هذه الكتب عبرة، **قال**: من لم يكن له في كتاب الله عبرة، فليس له في هذه الكتب عبرة، بلغكم أن مالك بن أنس وسفيان الثوري، والأوزاعي، والأئمة المتقدمين، صنفوا هذه الكتب في الخطرات والوساوس وهذه الأشياء، هؤلاء قوم خالفوا أهل العلم، يأتون مرة بالحارث المحاسبي، ومرة بعبد الرحيم الديبلي، ومرة بحاتم الأصم، ومرة بشقيق، ثم قال: ما أسرع الناس إلى البدع. (انظر: تاريخ بغداد ٨/٢١٥، وتلبيس إبليس ص١٨٦).

وسئل ذو النون عن الخطرات والوساوس، فقال: أنا لا أتكلم في شيء من هذا، فإن هذا محدث. (انظر تلبيس إبليس ص٢٧).

(٢) ومما يجدر ذكره هاهنا ما قاله ابن تيمية: «ولقد حدثني بعض المشايخ أن بعض ملوك فارس، قال لشيخ رآه قد جمع الناس على مثل هذا الاجتماع [رقص وغناء..]: ياشيخ إن كان هذا هو طريق الجنة، فأين طريق النار؟» الاستقامة ١/٣١٧.

وقد اتسع الخرق في هذا الباب، ودخل فيه قوم إلى أنواع الزندقة والنفاق، ودعوى أن أولياء الله أفضل من الأنبياء، أو أنهم مستغنون عنهم . . .

وأدخلوا في هذا الطريق أشياء كثيرة ليست من الدين في شيء، فبعضها زعموا أنّه يحصل به ترقيق القلوب كالغناء والرقص، وبعضها زعموا أنّه يراد لرياضة النفوس كعشق الصور المحرمة ونظرها، وبعضها زعموا أنه لكسر النفوس والتواضع كشهرة اللباس وغير ذلك مما لم تأت به الشريعة، وبعضه يصد عن ذكر الله وعن الصلاة كالغناء والنظر المحرم، وشابهوا بذلك الذين اتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا»[1].

إذا تقرر ما سبق، وعرفنا اعتماد السلف الصالح على الكتاب والسنة، وأن طريقتهم في السلوك في غاية الاتباع، وأما أرباب الطرق الصوفية ففي منتهىٰ الإحداث والابتداع. فها هنا سؤال يفرض نفسه وهو إذا لم يتيسر المسلك الشرعي الخالص إلا بنوع من الابتداع فما العمل؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية ـ مجيبًا عن هذا السؤال:

«وقد يتعذر أو يتعسر على السالك سلوك الطريق المشروعة المحضة إلا بنوع من المحدث لعدم القائم بالطريق المشروعة علمًا وعملاً، فإذا لم يحصل النور الصافي، بأن لم يوجد إلا النور الذي ليس بصاف، وإلا بقي الإنسان في الظلمة، **فلا ينبغي أن يعيب الرجل وينهىٰ عن نور فيه ظلمة**، إلا إذا حصل نور لا ظلمة فيه، وإلا فكم ممن عدل عن ذلك يخرج عن النور بالكلية . . .»[2].

---

(١) بيان فضل علم السلف على علم الخلف ص١٤٩، ١٥٠ = باختصار، وانظر جامع العلوم والحكم ٢/١٣٣.

(٢) مجموع الفتاوىٰ ١٠/٣٦٤، وله كلام نفيس في مثل هذا المبحث ـ في اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦١٦-٦١٩.

٢ ـ الوسطية :

من المعلوم أن أهل السنة والجماعة هم الوسط في فرق الأمة، فهم وسط في باب صفات الله سبحانه وتعالىٰ بين أهل التعطيل الجهمية، وأهل التمثيل المشبهة، وهم وسط في باب أفعال الله بين الجبرية والقدرية، وهم في باب الأسماء والأحكام والوعد والوعيد وسط بين الوعيدية الذين يجعلون أهل الكبائر من المسلمين مخلدين في النار، ويخرجونهم من الإيمان بالكلية، ويكذبون بشفاعة النبي ﷺ، وبين المرجئة الذين يقولون إيمان الفساق مثل إيمان الأنبياء، والأعمال الصالحة ليست من الإيمان، ويكذبون بالوعيد والعقاب بالكلية، كما أنهم وسط في أصحاب النبي ﷺ بين الرافضة والخوارج[١].

فإذا كان أهل السنة وسطًا في باب الاعتقاد، فكذلك هم وسط في باب السلوك بين طرفي الإفراط والتفريط، فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه.

إن إيمان أهل السنة بجميع النصوص الثابتة في مسألة ما قد أورثهم الخيرية والوسطية بين الفرق، وكما قال ابن تيمية:

«وكذلك [أهل السنة] في سائر أبواب السنة هم وسط؛ لأنهم متمسكون بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما اتفق عليه السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان»[٢].

ويقرر الشاطبي مفهوم الوسطية في هذا الدين فيقول:

«الشريعة جارية في التكليف بمقتضاها على الطريق الوسط الأعدل، الآخذ من الطرفين بقسط لا ميل فيه، الداخل تحت كسب العبد من غير مشقة

---

(١) انظر العقيدة الواسطية ص١٢٠ـ١٢٥، ومجموع الفتاوى ٣/٣٧٣ـ٣٧٥، ومفتاح دار السعادة ٢/٢٤٢، ٢٤٣.

(٢) مجموع الفتاوى ٣/٣٧٥.

عليه ولا انحلال، بل هو تكليف جارٍ على موازنة تقتضي في جميع المكلفين غاية الاعتدال. . . فإن كان التشريع لأجل انحراف المكلف، أو وجود مظنة انحرافه عن الوسط إلى أحد الطرفين، كان التشريع رادًّا إلى الوسط الأعدل، لكن على وجه يميل فيه إلى الجانب الآخر ليحصل الاعتدال فيه. . .

ـ إلى أن قال ـ:

فإذا نظرت في كلية شرعية فتأمّلها تجدها حاملة على التوسط، فإن رأيت ميلاً إلى جهة طرف من الأطراف، فذلك في مقابلة واقع أو متوقع في الطرف الآخر.

فطرفُ التشديد ـ وعامة ما يكون في التخويف والترهيب والزجر ـ يؤتىٰ به في مقابلة من غلب عليه الإنحلال في الدين.

وطرف التخفيف ـ وعامة ما يكون في الترجية والترغيب والترخيص ـ يؤتىٰ به في مقابلة من غلب عليه الحرج في التشديد، فإذا لم يكن هذا ولاذاك رأيت التوسط لائحًا، ومسلك الاعتدال واضحًا، وهو الأصل الذي يرجع إليه.

وعلى هذا إذا رأيت في النقل من المعتبرين في الدين من مال عن التوسط، فاعلم أن ذلك مراعاة منه لطرف واقع أو متوقع في الجهة الأخرىٰ، وعليه يجري النظر في الورع والزهد، وأشباههما، وما قابلهما»[1].

والآن نورد أمثلة على وسطية أهل السنة في السلوك على النحو الآتي:

أ ـ **أهل السنة والجماعة وسط في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين الوعيدية والمرجئة**، فالوعيدية من الخوارج والمعتزلة قد ينكرون المنكر، لكن بنوع من التعدي والإفراط، فجوّزوا الخروج على أئمة الجور وقتالهم، مما ترتب عليه أنواع من الفساد والمنكرات أكثر مما أزالوه. . .

---

(١) الموافقات ٢/١٦٣ـ١٦٨= باختصار.

وأما المرجئة فقد تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًّا أن ذلك من باب ترك الفتنة[١] فأهل السنة يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر على ما توجبه الشريعة، مع مراعاة مقاصد الشريعة، والحرص على لزوم الجماعة والائتلاف، والبعد عن الفرقة والاختلاف.

يقول ابن تيمية:

«أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والشيعة وغيرهم يرون قتال أئمة الجور، والخروج عليهم إذا فعلوا ما هو ظلم، أو ما ظنوه هم ظلمًا، ويرون ذلك من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وآخرون من المرجئة وأهل الفجور قد يرون ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ظنًّا أن ذلك من باب ترك الفتنة، وهؤلاء يقابلون لآولئك، ولهذا ذكر الأستاذ أبو منصور الماتريدي[٢] المصنف في الكلام وأصول الدين من الحنفية الذين وراء النهر ما قابل به المعتزلة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذكر أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سقط في هذا الزمان»[٣].

ويقول في موضع آخر:

«الطريقة الوسطىٰ التي هي دين الإسلام المحض جهاد من يستحق

---

(١) يقول ابن تيمية عن هذا الصنف: «وأقوام ينكلون عن الأمر والنهي والقتال الذي يكون به الدين كله لله، وتكون كلمة الله هي العليا، لئلا يفتنوا، وهم قد سقوط في الفتنة... وهذه حال كثير من المتدينين، يتركون مايجب عليهم من أمر ونهي وجهاد يكون به الدين كله لله؛ لئلا يفتنوا بجنس الشهوات، وهم قد وقعوا في الفتنة التي هي أعظم مما زعموا أنهم فروا منه». انتهىٰ ملخصًا. انظر مجموع الفتاوى ٢٨/١٦٧.

(٢) يظهر من مقالة أبي منصور الماتريدي ـ في تعريف الإيمان ـ نزعة إرجائية، حيث يقول: إن الإيمان هو ما في القلب، والقول الظاهر شرط لثبوت أحكام الدنيا. انظر: مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ٧/٥١٠، وشرح الطحاوية ٢/٤٥٩، ورسالة «الماتريدية» لأحمد الحربي ص٤٥٣.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/١٧٧.

الجهاد، كهؤلاء القوم المسئول عنهم [التتار]، مع كل أمير وطائفة هي أولىٰ بالإسلام منهم، إذا لم يمكن جهادهم إلا كذلك، واجتناب إعانة الطائفة التي يغزو معها على شيء من معاصي الله، بل يطيعهم في طاعة الله، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

وهذه طريقة خيار هذه الأمة قديمًا وحديثًا، وهي واجبة على كل مكلف، وهي متوسطة بين طريق الحرورية وأمثالهم ممن يسلك مسلك الورع الفاسد الناشيء عن قلة العلم، وبين طريقة المرجئة وأمثالهم ممن يسلك مسلك طاعة الأمراء مطلقًا وإن لم يكونوا أبرارًا»[1].

ب ـ **أهل السنة والجماعة وسط في باب الإخلاص بين المرائين والملامية.**

فالمراؤن يعملون الصالحات بقصد رؤية الناس وطلب مدحهم وثنائهم، وأما الملامية فعلىٰ النقيض من ذلك، فهم يفعلون ما يلامون عليه، ويقولون نحن متبعون في الباطن[2].

فأهل السنة يعملون الطاعات ابتغاء وجه الله تعالىٰ، فإذا ألقىٰ الله لهم الثناء الحسن في قلوب الناس بذلك، فتلك عاجل بشرىٰ المؤمن، فعن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه سئل عن الرجل يعمل العمل لله من الخير ويحمده الناس عليه، فقال: «**تلك عاجل بشرىٰ للمؤمن**»[3].

لقد جمع أهل السنة بين صحة القصد والإرادة، وصلاح العمل وموافقته للشرع، تحقيقًا لقوله تعالىٰ: ﴿**فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً**

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ٢٨/٥٠٨.

(٢) انظر لمعرفة حال «الملامية»: تلبيس إبليس ص٤١٠، و مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥/١٦٤، ومدارج السالكين ٣/١٧٧، ١٧٨، وإغاثة اللهفان ١/١٨٧.

(٣) أخرجه مسلم ح(٢٦٤٢)، وأحمد ٥/١٥٦، وانظر تفصيل مسألة: سرور الإنسان بمعرفة طاعته في كل من: تفسير ابن كثير ٤/٥٥٩، الآداب الشرعية لابن مفلح ١/١٤٨، وجامع العلوم والحكم ١/٨٣.

صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾ [الكهف، آية ١١٠].

جـ- **أهل السنة والجماعة وسط بين المشتغلين بالعبادات القلبية فقط - كالصوفية -، والمشتغلين بالعبادات الظاهرة فحسب - مثل بعض الفقهاء - فقام أهل السنة بالعبادات الظاهرة والباطنة معًا**[1].

يقول ابن تيمية : «كثر في المتفقهة من ينحرف عن طاعات القلب وعباداته، من الإخلاص لله، والتوكل عليه، والمحبة له، والخشية له ونحو ذلك.

وكثر في المتفقرة والمتصوفة من ينحرف عن الطاعات الشرعية، فلا يسألوا إذا حصل لهم توحيد القلب وتألهه أن يكون ما أوجبه الله من الصلوات، وشرعه من أنواع القراءة والذكر والدعوات أن يتناولوا ما حرم الله من المطاعم، وأن يتعبدوا بالعبادات البدعية من الرهبانية ونحوها، ويعتاضوا بسماع المكاء والتصدية عن سماع القرآن»[2].

ويقول ابن القيم : «إن لله على العبد عبوديتين: عبودية باطنة، وعبودية ظاهرة فله على قلبه عبودية، وعلى لسانه وجوارحه عبودية، فقيامه بصورة العبودية الظاهرة مع تعريه عن حقيقة العبودية الباطنة مما لا يقربه إلى ربه، ولا يوجد له الثواب وقبول عمله.

ولما رأى بعض أرباب القلوب طريقة هؤلاء [الفقهاء]، انحرف عنها هو إلى أن صرف همه إلى عبودية القلب، وعطل عبودية الجوارح، وقال المقصود

---

(١) ففي العبادات الباطنة - مثلاً - نراهم قد قاموا بها جميعًا خلافًا للمبتدعة.. وكما قال مكحول الدمشقي - رحمه الله -: «من عبد الله بالحبّ وحده فهو زنديق، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجيء، ومن عبد الله بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالحبّ والرجاء والخوف فهو مؤمن موحد.

(٢) . مجموع الفتاوى ٢٠/٧٢، ٧٣.

قيام القلب بحقيقة الخدمة والجوارح تبع.

والطائفتان متقابلتان أعظم تقابل، هؤلاء لا التفات لهم إلى عبودية جوارحهم، ففسدت عبودية قلوبهم، وأولئك لا التفات لهم إلى عبودية قلوبهم، ففسدت عبودية جوارحهم، والمؤمنون العارفون بالله وبأمره قاموا له بحقيقة العبودية ظاهرًا وباطنًا، وقدموا قلوبهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاء تبعًا لها، فأقاموا الملك وجنوده في خدمة المعبود، وهذا هو حقيقة العبودية»[١].

د ـ **أهل السنة وسط بين من يريد من الله ولا يريد الله، وبين من يريد الله ولا يريد منه**، فأهل السنة يريدون الله تعالى، ويريدون ثوابه، فهم خواص خلقه، قال تعالىٰ: ﴿**وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعدّ للمحسنات منكن أجرًا عظيمًا**﴾ [الأحزاب، آية ٣٣] وأما الذين يريدون من الله ولا يريدون الله، فهؤلاء ليس في قلوبهم غير إرادة نعيم الجنة المخلوق، كحال أكثر المتكلمين، المنكرين رؤية الله تعالى، والتلذذ بالنظر إلى وجهه في الآخرة، وهم عبيد الأجرة المحضة، فهؤلاء لايريدون الله تعالى وتقدس، ومنهم من يصرح بأن إرادة الله تعالى محال[٢].

وأما الذين يريدون الله ولا يريدون منه، فكحال الصوفية...

ومنشأ اشتباه واضطراب كلا الفريقين أنهم ظنوا أن الجنة التنعم بالمخلوق من أكل وشرب ونكاح ولباس... ثم صاروا فريقين، أحدهما: أنكروا رؤية المؤمنين لربهم كالمتكلمين من المعتزلة والجهمية ونحوهم، والفريق الآخر أثبتوا الرؤية، لكن اخطؤا من جهة أنهم جعلوا ذلك خارجًا عن الجنة، فاسقطوا حرمة اسم الجنة[٣].

---

(١) بدائع الفوائد ٣/٢٢٩، ٢٣٠، وانظر إغاثة اللهفان ١/١٨٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين ٢/٨٢.

(٣) انظر تفصيل ذلك في: مجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٦٩٤-٧٠٠، ومدارج السالكين ٢/٨٢، ٨٣.

هـ - **أهل السنة وسط بين أهل الفجور والفواحش، وأصحاب الرهبانية والتشدد.** فأهل الفجور هم المترفون المنعمون، ممن أسرفوا على أنفسهم، فأضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وأما المترهبون فأوقعهم في البدع غلوهم وتشديدهم، فحرّموا ما أحل الله من الطيبات.

قال تعالى: ﴿**يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين**﴾ [المائدة، آية ٨٧].

فنهىٰ سبحانه عن تحريم ما أحل من الطيبات، وعن الاعتداء في تناولها وهو مجاوزة الحد، وقد فسر الاعتداء في الزهد والعبادة، بأن يحرموا الحلال ويفعلوا من العبادة ما يضرهم، فيكونوا قد تجاوزوا الحد وأسرفوا، وقيل: لا يحملنكم أكل الطيبات على الإسراف وتناول الحرام من أموال الناس[1].

٣ - **من معالم أهل السنة في السلوك: موافقة النصوص الشرعية لفظًا ومعنىٰ**[2]، فيتأدبون مع المصطلحات الشرعية الدينية، ويستمسكون بألفاظها ومعانيها، ويحققون حدودها وتعريفاتها علمًا وعملاً.

وسنتحدث عن هذه المسألة من خلال ما يلي:

أ - أثنىٰ الله تعالى على من عرف حدود ما أنزل الله تعالى على رسوله، وذمّ من جهلها فقال سبحانه: ﴿**الأعرابُ أشد كفرًا ونفاقًا وأجدَرُ أن لا يعلمواحدودَ ما أنزل الله على رسوله**﴾ [التوبة، آية٩٧].

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ١٤/٤٥٧-٤٦٠، ١٠/٦٢٣.

(٢) أهل السنة وافقوا تلك النصوص لفظًا ومعنى، وهناك من وافق النصوص في المعنى دون اللفظ كمن يتكلم في المعاني الشرعية الصحيحة بألفاظ غير شرعية...، وهناك من وافق النصوص في اللفظ دون المعنى كالباطنية، وصنف رابع خالف النصوص لفظًا ومعنى كالملاحدة والكفار. انظر: منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد لعثمان حسن ٢/٦٩٢.

يقول ابن القيم:

«معـرفة منازل العبودية ومراتبها من تمام معرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وقد وصف الله تعالىٰ من لم يعرفها بالجهل والنفاق، فقال تعالىٰ: ﴿**الأعـراب أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله**﴾ [التوبة، آية ٩٧]. فبمعرفة حدودها دراية، والقيام بها رعاية، يستكمل العبد الإيمان ويكون من أهل ﴿**إياك نعبد وإياك نستعين**﴾[١]».

ويقول أيضًا:

«**فمن أشرف العلوم وأنفعها علم الحدود**، ولا سيما حدود المشروع المأمور والمنهي، فأعلم الناس أعلمهم بتلك الحدود حتى لا يدخل فيها ما ليس منهـا، ولا يخرج منها ما هو داخل فيها... وأعدل الناس من قام بحدود الأخلاق والأعمال والمشروعات معرفة وفعلًا»[٢].

ب ـ يقرر ابن تيمية الواجب نحو الألفاظ الشرعية فيقول:

«الألفاظ التي جاء بها الكتاب والسنة علينا أن نتبع ما دلت عليه، مثل لفظ الإيمان، والبر، والتقوىٰ، والصدق، والعدل، والإحسان، والصبر، والشكر، والتوكل، والخوف، والرجاء، والحب لله، والطاعة لله وللرسول، وبر الوالدين، والوفاء بالعهد ونحو ذلك مما يتضمن ذكر ما أحبه الله ورسوله من القلب والبدن، فهذه الأمور التي يحبها الله ورسوله هي الطريق الموصل إلى الله، مع ترك مانهىٰ الله عنه ورسوله كالكفر والنفاق والكذب، والإثم والعدوان، والظلم والجزع والهلع، والشرك والبخل والجبن، وقسوة القلب والغدر وقطيعة الرحم ونحو ذلك، **فعلىٰ كل مسلم أن ينظر فيما أمر الله به ورسوله فيفعله، وما نهىٰ الله عنه ورسوله فيتركه، هذا هو طريق الله وسبيله**

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٤٠ـ بتصرف يسير.

(٢) الفوائد ص١٣٣= باختصار يسير.

ودينه الصراط المستقيم»[١].

ويقول أيضًا: «الألفاظ الشرعية لها حرمة، ومن تمام العلم أن يبحث عن مراد رسوله بها ليثبت ما أثبته، وينفي ما نفاه من المعاني، فإنه يجب علينا أن نصدقه في كل ما أخبر، ونطيعه في كل ما أوجب وأمر. . .»[٢].

جـ - إن تحقيق معنىٰ الأمور السلوكية، والعلم بحدودها وضوابطها الشرعية هو السبب في تمييز تلك الأمور المشروعة من غيرها.

فكثيرًا ما يشتبه الزهد الشرعي - مثلاً - بالكسل والعجز والبطالة عن الأوامر الشرعية، وكثيراً ما تشتبه الرغبة الشرعية بالحرص والطمع والعمل الذي ضلّ سعيُ صاحبه[٣]. وكثيرًا ما يشتبه التوكل بالإضاعة، فيضيع العبد حظه، ظنًّا منه أن ذلك تفويض وتوكل، وإنما هو تضييع. . .[٤].

د - إن كان ثمت ألفاظ مجملة[٥] في باب الاعتقاد، كالحيز والجوهر والجسم. . . إلخ، فكذلك في باب السلوك توجد ألفاظ مجملة كالتصوف والفناء والفقر ونحوه.

وقد تقرر أن موقف السلف الصالح من الألفاظ المجملة في الاعتقاد هو التفصيل، فلا يطلقون نفيها ولا إثباتها إلا إذا بُيّن ما أثبت بها، فهو ثابت، وما نُفي بها، فهو منفي، فهم ينظرون في مقصود قائلها فإن كان معنىٰ صحيحًا قُبل، لكن ينبغي التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية دون الألفاظ المجملة، إلا عند الحاجة، مع قرائن تبيّن المراد والحاجة، مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١١/٢٥.

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/١١٣، ١١٤.

(٣) انظر تفصيل ذلك في مجموع الفتاوى ١٠/٦١٧.

(٤) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين ٢/١٢٣.

(٥) المقصود بالألفاظ المجملة هي الألفاظ التي لم ترد في الكتاب ولا في السنة بنفي ولا إثبات.

المقصود معه إن لم يخاطب بها[١] .

يقول ابن تيمية ـ موضحًا الموقف الصحيح من هذه الألفاظ :

«وأما الألفاظ التي ليست في الكتاب والسنة ولا اتفق السلف على نفيها أو إثباتها، فهذه ليس على أحد أن يوافق من نفاها أو أثبتها حتى يستفسر عن مراده، فإن أراد بها معنىً يوافق خبر الرسول أقرّ به، وإن أراد بها معنىً يخالف خبر الرسول أنكره.

ثم التعبير عن تلك المعاني إن كان في ألفاظه اشتباه أو إجمال عبر بغيرها أو بيّن مراده بها، بحيث يحصل تعريف الحق بالوجه الشرعي، فإن كثيراً من نزاع الناس سببه ألفاظ مجملة مبتدعة ومعان مشتبهة»[٢] .

وإذا كان أهل الكلام أحدثوا ألفاظًا مجملة في أسماء الله وصفاته، فإن أرباب الطرق الصوفية قد أحدثوا ألفاظًا مجملة في السلوك، وهذه الألفاظ عمومًا لا تخلو من مخالفات للكتاب والسنة، إضافة إلى ما فيها من التكلّف الشديد، والتعقيد في الألفاظ والمعاني، فوعّروا ـ أي المتكلمون والمتصوفة ـ الطريق إلى تحصيلها، وأطالوا الكلام في إثباتها مع قلة نفعها، فهو لحم جمل غث على رأس جبلٍ وعْر، لا سهل فيرتقىٰ، ولا سمين فينتقل، فيطول عليك الطريق، ويوسع لك العبارة، ويأتي بكل لفظ غريب ومعنىً أغرب من اللفظ، فإذا وصلت لم تجد معك حاصلاً طائلاً، ولكن تسمع جعجعة ولا ترىٰ طحنًا[٣] .

ومع ذلك كله فإن الموقف الصحيح من تلك الألفاظ المجملة في السلوك هو التفصيل، فلا تنفىٰ بإطلاق، كما لا تثبت بإطلاق، وإنما يستفسر عن مقصود

---

(١) انظر مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ٣/٣٠٧، ٣٠٨، ٥/٢٩٩، ٣٠٢، وشرح الطحاوية ١/٢٦٠، ٢٦١ .

(٢) مجموع الفتاوى ١٢/١١٤ .

(٣) انظر مدارج السالكين ٣/٤٣٧، وشرح الطحاوية ١/٢٣٨ .

قائلها، فإن قصد معنىً صحيحًا قُبِل، مع مراعاة التعبير عنه بألفاظ النصوص الشرعية، وإن قصد معنىً فاسدًا ردّ.

وإليك أقوال بعض الأئمة في هذه المسألة:

يقول ابن تيمية: «لفظ الفقر[1] والتصوف قد أُدخل فيها أمور يحبها الله ورسوله، فتلك يؤمر بها وإن سميت فقرًا أو تصوفًا، لأن الكتاب والسنة إذا دلّ على استحبابها لم يخرج عن ذلك بأن تسمىٰ باسم آخر، كما يدخل في ذلك أعمال القلوب كالتوبة والصبر والشكر والرضا...، وقد أدخل فيها أمورٌ يكرهها الله ورسوله، كما يدخل فيه بعضهم نوعًا من الحلول والاتحاد، وآخرون نوعًا من الرهبانية المبتدعة في الإسلام...

فهذا وأمثاله من البدع والضلالات يوجد في المنتسبين إلى طريق الفقر كما يوجد في المنتسبين إلى العلم أنواع من البدع في الاعتقاد والكلام المخالف للكتاب والسنة والتقيد بألفاظ واصطلاحات لا أصل لها في الشريعة...

والمؤمن الكيس يوافق كل قوم فيما وافقوا فيه الكتاب والسنة، وأطاعوا فيه الله ورسوله، ولا يوافقهم فيما خالفوا فيه الكتاب والسنة، أو عصوا فيه الله ورسوله...»[2].

ويقول ابن القيم: «اعلم أن في لسان القوم[3] من الاستعارات، وإطلاق العام وإرادة الخاص، وإطلاق اللفظ وإرادة إشارته دون حقيقة معناه ما ليس في لسان أحد من الطوائف غيرهم، ولهذا يقولون نحن أصحاب إشارة لا أصحاب عبارة، وقد يطلقون العبارة التي يطلقها الملحد، ويريدون بها معنى لافساد فيه،

---

(١) الفقر ـ في الكتاب والسنة ـ ما يقابل الغنىٰ، والمراد به هاهنا الزهد والتصوف.. انظر: مجموع الفتاوىٰ ١١/ ٢٠، ٢١، ٢٧، ومدارج السالكين ٢/ ٤٣٨.

(٢) مجموع الفتاوى ١١/ ٢٨، ٢٩ـ باختصار.

(٣) يعني أرباب السلوك والإرادة والتصوف.

وصار هذا سبباً لفتنة طائفتين طائفة تعلّقوا عليهم بظاهر عباراتهم، فبدّعوهم وضللوهم، وطائفة نظروا إلى مقاصدهم ومغزاهم، فصوبوا تلك العبارات، وصححوا تلك الإشارات، **فطالب الحق يقبله ممن كان، ويرد ما خالفه على من كان**»[١].

ويقول الشاطبي:

«وأما الكلام في دقائق التصوف، فليس ببدعة بإطلاق، ولا هو ممّا صح بالدليل بإطلاق، بل الأمر ينقسم.

ولفظ التصوف لابد من شرحه أولاً، حتى يقع الحكم على أمر مفهوم؛ لأنه أمر مجمل عند هؤلاء المتأخرين...»[٢].

ثم ذكر ـ رحمه الله ـ المعاني الصحيحة والفاسدة للتصوف[٣][٤].

٤ ـ **من المعالم المهمة في باب السلوك**: مراعاة أحوال المكلفين، وتحقيق الجانب الواقعي الإيجابي، والابتعاد عن المثالية والسلبية، والاعتناء بالجوانب العملية بعيداً عن الاشتغال فيما لا تحته عمل[٥].

---

(١) مدارج السالكين ٣/٣٣٠، ٣٣١ـ باختصار يسير، وانظر ٣/١١٧، ١٥١، ٣١٦، ٣٧٧، ٣٧٨، وعدة الصابرين ص١٥١، ومفتاح دار السعادة ١/١٤١.

(٢) الاعتصام ١/٢٦٥.

(٣) انظر الاعتصام ١/٢٦٥ـ٢٦٩.

(٤) مما تجدر الإشارة إليه أن بعض الأئمة أنكروا الألفاظ المجملة سواءً في الاعتقاد أو السلوك كالذهبي ـ رحمه الله. (انظر سير أعلام النبلاء ٦/٨٦، ٢٠/٨٥، ٨٦ ومختصر العلو ص٢٧٩)، بل إن الذهبي أنكر بعض الألفاظ التي استعملها السلف الصالح من باب التوضيح والرد على المخالف مثل: «بذاته» و«حقيقة» (انظر كتاب مختصر العلو للذهبي ص١٨، ١٩، ص٢٦٣، ٢٦٠، وانظر معجم المناهي اللفظية لبكر أبي زيد ص١٧٩، ٢٥٨).

(٥) هذا المعْلَم وثيق الصلة بالوسطية، وبينهما تداخل، لكن لأهميته أفردتُ له مبحثًا.

وإليك بيان هذا المعْلَم من خلال ما يأتي:

أ - من سمات السلوك الشرعي: مراعاة أحوال المكلفين وقدراتهم وطبائعهم، والاهتمام بالجانب الواقعي الإيجابي.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**سدِّدوا وقاربوا، واغدوا وروحوا وشيء من الدلجة، والقصدَ القصد تبلغوا**»(١).

يقول الحافظ ابن حجر: «قوله: (**سددوا**) معناه: اقصدوا السداد أي الصواب، وقوله: «**وقاربوا**» أي لا تفرطوا فتجهدوا أنفسكم في العبادة لئلا يفضي بكم ذلك إلى الملال فتتركوا العمل فتفرطوا»(٢).

إن من مزايا هذا الدين وخصائصه: مراعاة أحوال المكلفين، وملائمة طبيعة الإنسان، بقوته وضعفه، ونوازعه ومشاعره.

وقد أشار ابن القيم إلى هذه «الواقعية» بقوله:

«لما كان العبد لا ينفك عن الهوىٰ مادام حيًّا، فإن هواه لازم له، كان الأمر بخروجه عن الهوىٰ بالكلية كالممتنع، ولكن المقدور له والمأمور به أن يصرف هواه عن مراتع الهَلَكة إلى مواطن الأمن والسلامة، مثاله أن الله سبحانه وتعالىٰ لم يأمره بصرف قلبه عن هوىٰ النساء جملة، بل أمره بصرف ذلك إلى نكاح ما طاب له منهن من واحدة إلى أربع، ومن الإماء ما شاء، فانصرف مجرىٰ الهوىٰ من محل إلى محل، وكانت الريح دبورًا فاستحالت صبًا، وكذلك هوىٰ الظفر والغلبة والقهر، لم يأمر بالخروج عنه، بل أمر بصرفه إلى الظفر والقهر والغلبة للباطل وحزبه، وشرع له من أنواع المغالبات بالسباق وغيره مما يمرِّنه ويعدُّه للظفر. . .»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري ح(٦٤٦٣).

(٢) فتح الباري ١١/٢٩٧، ٢٩٨- باختصار.

(٣) روضة المحبين ص١١، وانظر الاستقامة لابن تيمية ٢/١٥٦، والاعتصام للشاطبي ١/٢٧٣، ٢٧٤.

ولقد كان الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ مدركًا لهذا الأمر، فلما قال له ابنه عبد الملك: يا أبة ما يمنعك أن تمضي لما تريد من العدل فوالله ما كنتُ أبالي ولو غلتْ بي وبك القدور في ذلك. فقال عمر: يا بني إنما أنا أروض الناس رياضة الصعب. إني لأريد أن أحيى ا لأمر من العدل فأوخره حتى أخرج معه طمعاً من الدنيا فينفروا من هذه، ويسكنوا لهذه»[١].

وللحسن البصري مقالة نفيسة في هذا المقام، نوردها بتمامها حيث يقول رحمه الله:

«إن هذا الدين دين واصب، وإنه من لا يصبر عليه يدعه، وإن الحق ثقيل، وإن الإنسان ضعيف، وكان يقال: ليأخذ أحدكم من العمل ما يطيق، فإنه لا يدري ما قدر أجله، **وإن العبد إذا ركب بنفسه العنف، وكلّف نفسه ما لا يطيق أوشك أن يُسيِّب ذلك كله، حتى لعله لا يقيم الفريضة، وإذا ركب نفسه التيسير والتخفيف وكلّف نفسه ما تطيق كان أكيس**، وأمنعها من هذا العدو، وكان يقال شر السير الحقحقة[٢]»[٣].

وهذا أبو حازم سلمة بن دينار ـ رحمه الله تعالى ـ يقرر هذه «الواقعية» فيجمع بين موافقة الفطرة وملائمة نوازع الإنسان، مع الاعتناء بترويض النفس وتهذيبها علىٰ طاعة الله تعالىٰ، «فلما جاء رجل لأبي حازم وقال: إني لأجد شيئًا يحزنني. قال أبو حازم: وما هو يا ابن أخي؟ قال: حبي الدنيا. فقال لي: اعلم يا ابن أخي إن هذا الشيء ما أعاتب نفسي على حبّ شيء حببه الله تعالىٰ إليّ؛ لأن الله عز وجل قد حبب هذه الدنيا إلينا، ولكن لتكن معاتبتنا أنفسنا في غير هذا،

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص٣٠٠ والحلية ٥/٢٨١، ٢٨٣، ٣٥٤، وانظر الموافقات للشاطبي ٢/٩٤.

(٢) الحقحقة: المتعب من السير.

(٣) الزهد لابن المبارك ص٤٦٨.

أن لا يدعونا حبّها إلى أن نأخذ شيئًا من شيء يكرهه الله، ولا أن نمنع شيئًا من شيء أحبه الله، فإذا نحن فعلنا ذلك لا يضرنا حبنا إياها»[١].

وقد أعرض طائفة من الصوفية عن تلك الواقعية في الإنسان، فلم يلتفتوا إلى نوازع الإنسان وغرائزه، وخالفوا الفطرة السوية، ولذا تعذّر عليهم قمع تلك الغرائز، ثم انتكسوا إلى الإغراق في الشهوات والإباحة.

ولقد تحدّث ابن الجوزي عن هذا الصنف مبينًا سبب انحرافهم فقال:

«إن قومًا منهم وقع لهم أن المراد رياضة النفوس لتخلص من أكدارها المردية، فلما راضوها مدة ورأوا تعذر الصفاء، قالوا: ما لنا نتعب أنفسنا في أمر لا يحصل لبشر، فتركوا العمل.

وكشف هذا التلبيس أنهم ظنوا أن المراد قمع ما في البواطن من الصفات البشرية مثل قمع الشهوة والغضب وغير ذلك، وليس هذا مراد الشرع، ولا يتصور إزالة ما في الطبع بالرياضة، وإنما خُلقت الشهوات لفائدة، إذ لولا شهوة الطعام هلك الإنسان، ولولا شهوة النكاح انقطع النسل، ولولا الغضب لم يدفع الإنسان عن نفسه ما يؤذيه، وإنما المراد من الرياضة كفّ النفس عما يؤذي من جميع ذلك وردها إلى الاعتدال فيه، وقد مدح الله عز وجل من نهىٰ النفس عن الهوىٰ، وإنما تنتهي عما تطلبه، ولو كان طلبه قد زال عن طبعها ما احتاج الإنسان إلى نهيها، وقد قال الله عز وجل: ﴿**والكاظمين الغيظ**﴾ [آل عمران، آية ١٣٤] وما قال: والفاقدين الغيظ، والكظم ردّ الغيظ...»[٢].

إضافة إلى ذلك فإن بعض أرباب الزهد والسلوك قد أهملوا هذا الجانب الواقعي، وحمّلوا أنفسهم ما لا قِبل لهم به، حيث قالوا كلمات لم يفكروا في عواقبها وآثارها.

---

(١) الحلية لأبي نعيم ٣/٢٤٤، وانظر الرعاية للمحاسبي ص٢٤٩.

(٢) تلبيس إبليس ص٤١٥، وانظر ص٢٩٩.

كما يُذكر عن سمنون المحب أنه كان يقول:

ولـيـس لي فـي سـواك حـظ فكـيـف ما شـئـت فاخـتـبرنـي

فأخذ الأسْر من ساعته، أي حُصِر بوله، فكان يدور على المكاتب ويفرِّق الجوز على الصبيان، ويقول: **ادعوا لعمكم الكذّاب**.

وفي رواية أنه قال: يارب قد رضيت بكل ما تقضيه عليّ، فاحتُبس بوله أربعة عشر يومًا، فكان يتلوى كما تتلوىٰ الحية على الرمل، يتلوىٰ يمينًا وشمالاً، فلما أطلق بوله قال: يارب تبت إليك[١].

يقول ابن تيمية معلقًا على هذه الحكاية وأمثالها:

«وهـذه الكلمات التي تصـدر عن صاحب حال لم يفكـر في لوازم أقـواله وعواقبها، لاتُجعل طريقة ولا تتخذ سبيلاً، ولكن قد يُستدل بها على ما لصاحبها من الرضا والمحبة ونحو ذلك، وما معه من التقصير في معرفة حقوق الطريق. . .

والرسل صلوات الله عليهم أعلم بطريق سبيل الله وأهدىٰ وأنصح، فمن خرج عن سنتهم وسبيلهم كان منقوصًا مخطئًا محرومًا.

ويشبـه هذا الأعـرابي الذي دخل عليه النبي ﷺ وهو مريض كالفرخ، فقال: **هل كنت دعوت الله بشيء؟** فقال: كنت أقول: اللهم ما كنت معذِّبي به في الآخرة فعجّله لي في الدنيا، فقال: **سبحان الله لا تستطيعه ـ أو لا تطيقه ـ هلّا قلت ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة، وقنا عذاب النار**[٢]»[٣].

ب ـ حرص السلف الصالح على ما ينفع، فاشتغلوا فيما تحته عمل، واجتهدوا في طاعـة الله تعـالى والاتباع، وانقادوا لشرع الله وحكمه، دون الخوض في

---

(١) انـظر حلية الأولياء ١٠/٣٠٩، ٣١٠. ومجمـوع الفتـاوىٰ لابن تيمية ١٠/٢٤١، ٦٩٠. والاستقامة لابن تيمية ٢/٨٨.

(٢) أخرجه مسلم، ك الذكر، ح (٢٦٨٨).

(٣) الاستقامة ٢/٩٢، وانظر مدارج السالكين ٢/٣١١-٣١٣.

إشارات صوفية، أو مسالك كلامية.

فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان أحبّ العمل إلى رسول الله ﷺ الذي يدوم عليه صاحبه»(١).

«دخل الحسن البصري ـ رحمه الله ـ المسجد فقعد إلى جنب حلقة يتكلمون، فأنصت لحديثهم، ثم قال: هؤلاء قوم ملوا العبادة، ووجدوا الكلام أهون عليهم، وقلّ ورعهم فتكلموا»(٢).

«وقال الأوزاعي ـ رحمه الله ـ: إن المؤمن يقول قليلاً ويعمل كثيرًا، وإن المنافق يقول كثيرًا ويعمل قليلاً»(٣).

«وكان مالك بن أنس يقول: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه... ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في الدين إلا فيما تحته عمل»(٤).

«ولما سئل الإمام مالك عن طلب العلم، قال: حسن جميل، لكن انظر الذي يلزمك من حين تصبح إلى أن تمسي فالزمه»(٥).

وتحقيقًا للاشتغال بما هو أنفع كره الإمام أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ توسعة الكلام في دقائق أعمال القلوب والتي لم تنقل عن الصحابة والتابعين(٦).

إضافة إلى أن الاشتغال بتلك الدقائق والآفات الخفية ربما أوقع فيما هو أشكّ منها كما نبه على ذلك الإمام ابن القيم ـ رحمه الله ـ فقال:

---

(١) أخرجه البخاري. ك الرقاق باب القصد والمداومة على العمل (٦٤٦٢).

(٢) حلية الأولياء ٢/١٥٧= باختصار يسير.

(٣) المرجع السابق ٦/١٤٢، وسير أعلام النبلاء ٧/١٢٥.

(٤) جامع بيان العلم لابن عبد البر ٢/٩٥.

(٥) حلية الأولياء ٦/٣١٩، وسير أعلام النبلاء ٨/٩٦.

(٦) انظر جامع العلوم والحكم لابن رجب ٢/١٣١.

«فلا إله إلا الله. كم في النفوس من علل وأغراض وحظوظ تمنع الأعمال أن تكون لله خالصة، وأن تصل إليه؟

فبين العمل وبين القلب مسافة، وفي تلك المسافة قطّاع تمنع وصول العمل إلى القلب... ثم بين القلب وبين الرب مسافة، وعليها قطّاع تمنع وصول العمل إليه، من كبر وإعجاب، ورؤية العمل، ونسيان المنة، وعلل خفية لو استقصىٰ في طلبها لرأىٰ العجَب، ومن رحمة الله تعالىٰ سترها على أكثر العمال، إذ لو رأوها وعاينوها لوقعوا فيما هو أشد منها، من اليأس والقنوط والاستحسار، وترك العمل، وخمود العزم، وفتور الهمة، **ولهذا لما ظهرت «رعاية»[1] أبي عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، واشتغل بها العباد، عطلت منهم مساجد كانوا يعمرونها، بالعبادة، والطبيب الحاذق يعلم كيف يطبّ النفوس، فلا يعمر قصراً ويهدم مصراً[2]»[3].

ويقول في موضع آخر:

«وسألت يوماً شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن هذه المسألة [تهذيب الأخلاق وترويضها]، وقطع الآفات، والاشتغال بتنقية الطريق وبتنظيفها؟

فقال لي جملة كلام: النفس مثل الباطوس ـ وهو جبّ القذر ـ كلما نبشته ظهر وخرج، ، ولكن إن أمكنك أن تسقف عليه، وتعبره وتجوزه، فافعل، ولا تشتغل بنبشه، فإن لن تصل إلى قراره، وكلما نبشت شيئًا ظهر غيره.

فقلت: سألت عن هذه المسألة بعض الشيوخ، فقال لي: مثل آفات النفس مثل الحيات والعقارب التي في طريق المسافر، فإن أقبل على تفتيش الطريق عنها،

---

(١) يعني كتاب «الرعاية لحقوق الله» للحارث المحاسبي.

(٢) مدارج السالكين ١/ ٤٣٩ = باختصار.

(٣) ومن هذا القبيل ما ذكره الغزالي في «الإحياء» أنه كان يجتاز الإنسان في سكك البصرة عند الصبح، فيسمع أصوات المصلين بالقرآن من البيوت، فصنف بعضهم كتابًا في دقائق الرياء فتركوا ذلك وترك الناس الرغبة فيه، فكانوا يقولون: ليت ذلك الكتاب لم يصنف انظر الإحياء ٣/ ٣١٩.

والاشتغال بقتلها انقطع، ولم يمكنه السفر قط، ولتكن همتك المسير، والإعراض عنها، وعدم الالتفات إليها، فإذا عرض لك فيها ما يعوقك عن المسير فاقتله، ثم امض على سيرك.

فاستحسن شيخ الإسلام ذلك جدًّا، وأثنىٰ على قائله»[١].

كما أن الاشتغال بتلك الدقائق ينبغي أن يكون مسبوقاً بما هو آكد فرضًا من فعل الواجبات الظاهرة وترك المحرمات الظاهرة.

ولذا يقول ابن رجب ـ رحمه الله ـ:

«وهاهنا أمر ينبغي التفطن له وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها، وتشابهت أعماله في التقوىٰ والورع، فأمّا من يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة، ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشُّبه، فإنه لا يحتمل له ذلك، بل يُنكر عليه، كما قال ابن عمر لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق: يسألوني عن دم البعوض، وقد قتلوا الحسين»[٢].

٥ ـ **ومن معالم السلوك الشرعي**: مراعاة تفاوت قدرات الناس في فعل الطاعات، وذلك بسبب اختلاف استعداداتهم، وتنّوع مواهبهم وميولهم.

وقد قرر الإمام مالك بن أنس ـ رحمه الله ـ هذا المعْلَم، وذلك لمّا كتَب عبد الله العُمري العابد إلى مالك يحضّه على الانفراد والعمل، فكتب إليه مالك: إن الله قسم الأعمال كما قسم الأرزاق، فربّ رجل فُتح له في الصلاة، ولم يُفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فُتح له في الجهاد، فنشْر العلم من أفضل أعمال البر، وقد رضيتُ بما فُتح لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر[٣].

---

(١) مدارج السالكين ٢/٣١٣، ٣١٤.

(٢) جامع العلوم والحكم ١/٢٨٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/١١٤.

ولما سئل ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن الأسباب التي يقوىٰ بها الإيمان إلى أن يكمل . . . هل يبدأ بالزهد؟ أو بالعلم؟ أم يجمع بين ذلك على حسب طاقته؟

أجاب بقوله: «الناس يتفاضلون في هذا الباب، فمنهم من يكون العلم أيسر عليه من الزهد، ومنهم من يكون الزهد أيسر عليه، ومنهم من تكون العبادة أيسر عليه منهما، فالمشروع لكل إنسان أن يفعل ما يقدر عليه من الخير، كما قال تعالىٰ: ﴿**فاتقوا الله ما استطعتم**﴾ [التغابن، آية ١٦].

وإذا ازدحمت شعب الإيمان قدم ما كان أرضىٰ لله وهو عليه أقدر، **فقد يكون على المفضول أقدر منه على الفاضل، ويحصل له أفضل مما يحصل من الفاضل، فالأفضل لهذا أن يطلب ما هو أنفع له، وهو في حقه أفضل، ولا يطلب ما هو أفضل مطلقًا، إذا كان متعذرًا في حقه أو متعسرًا يفوته ما هو أفضل له وأنفع**، كمن يقرأ القرآن فيتدبره وينتفع بتلاوته، والصلاة تثقل عليه، ولا ينتفع منها بعمل، أو ينتفع بالذكر أعظم مما ينتفع بالقراءة، فأي عمل كان له أنفع ولله أطوع أفضل في حقه من تكلف عمل لا يأتي به على وجهه، بل على وجه ناقص، ويفوته ما هو أنفع له»[1].

وقال ـ في موضع آخر ـ:

«وأما ما سألت عنه من أفضل الأعمال بعد الفرائض، فإنه يختلف باختلاف الناس فيما يقدرون عليه وما يناسب أوقاتهم، فلا يمكن فيه جواب جامع مفصل لكل أحد . . . .»[2].

وتحدّث ابن القيّم عن هذا المعلم فكان مما قاله:

«والمقصود أن الطريق إلى الله واحد، فإنه الحق المبين، والحق واحد، مرجعه إلى واحد. وأما الباطل والضلال فلا ينحصر، بل كل ما سواه باطل، وكل طريق

---

(١) مجموع الفتاوى ٧/٦٥١، ٦٥٢.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/٦٦٠، وانظر مجموع الفتاوىٰ ٢٤/٢٤٦.

إلى الباطل فهو باطل. فالباطل متعدد، وطرقه متعددة، وأما ما يقع في كلام بعض العلماء أن الطريق إلى الله متعددة متنوعة، جعلها الله كذلك لتنوع الاستعدادات واختلافها رحمة منه وفضلاً، فهو صحيح لا ينافي ما ذكرناه من وحدة الطريق.

وكشف ذلك وإيضاحه أن الطريق هي واحدة جامعة لكل ما يرضي الله، وما يرضيه متعدد متنوع، فجميع ما يرضيه طريق واحد، ومراضيه متعددة متنوعة بحسب الأزمان والأماكن والأشخاص والأحوال، وكلها طرق مرضاته، فهذه التي جعلها الله لرحمته وحكمته كثيرة متنوعة جدًّا لاختلاف استعدادات العباد وقوابلهم.

وإذا علم هذا **فمن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الذي يعد سلوكه إلى الله طريق العلم والتعليم**، قد وفر عليه زمانه مبتغيًا به وجه الله، فلا يزال كذلك عاكفًا على طريق العلم والتعليم حتى يصل من تلك الطريق إلى الله، ويفتح له فيها الفتح الخاص أو يموت في طريق طلبه فيرجىٰ له الوصول إلى مطلبه بعد مماته...

ومن الناس من يكون سيد عمله الذكر وقد جعله زاده لمعاده ورأس ماله لمآله، فمتىٰ فتر عنه أو قصّر رأىٰ أنه قد غبن وخسر.

ومن الناس من يكون سيد عمله وطريقه الصلاة، فمتى قصّر في ورده منها أو مضىٰ عليه وقت وهو غير مشغول بها أو مستعد لها أظلم عليه وقته وضاق صدره.

ومن الناس من يكون طريقه الإحسان والنفع المتعدي كقضاء الحاجات وتفريج الكربات وإغاثة اللهفان وأنواع الصدقات.

ومنهم من يكون طريقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قد فتح الله له فيه ونفذ منه إلى ربه.

ومنهم من يكون طريقه قطع العلائق وتجريد الهمة ودوام المراقبة وحفظ الأوقات أن تذهب ضائعة.

ومنهم جامع المنفذ السالك إلى الله تعالى في كل واد، الواصل إليه من كل طريق، فهو جعل وظائف عبوديته قبلة قلبه ونصب عينه يؤمها أين كانت، ويسير معها حيث سارت، **قد ضرب مع كل فريق بسهم، فأين كانت العبودية وجدته هناك**، إن كان علم وجدته مع أهله، أو جهاد وجدته في صف المجاهدين، أو صلاة وجدته في القانتين، أو ذكر وجدته في الذاكرين، أو إحسان ونفع وجدته في زمرة المحسنين. . . يدين بدين العبودية أنّىٰ استقلت ركائبُها ويتوجه إليها حيث استقرت مضاربُها، **لو قيل له: ما تريد من الأعمال؟ لقال: أريد أن أنفذ أوامر ربي حيث كانت**»[1].

وهذا الصنف الأخير- الذي ذكره ابن القيم آنفًا - هم الصدّيقون. الذين سلكوا كل أبواب الخير، وحققوا جميع خصال البر وأعماله[2]، كما قال تعالىٰ: ﴿**ليس البر أن تولّوا وجوهَكم قِبلَ المشرقِ والمغربِ ولكنّ البرَّ من آمن بالله واليومِ الآخرِ والملائكةِ والكتابِ والنبيين وآتَىٰ المالَ على حبّه ذوي القربىٰ واليتامىٰ والمساكينَ وابنَ السبيلِ والسائلين وفي الرقابِ وأقامَ الصلاةَ وآتىٰ الزكاةَ والموفونَ بعهدِهم إذا عاهدوا والصابرين في البأساءِ والضراءِ وحينَ البأسِ أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون**﴾ [البقرة، آية ١٧٧].

وخير مثال على الصدّيقين: أبو بكر الصدّيق رضي الله عنه والذي كان له السبق في جميع القربات والصالحات.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَن أصبح منكم اليوم صائمًا**: قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا. قال: **فمن تبع منكم اليوم جنازة؟**. قال أبو بكر رضي الله عنه: أنا، قال: **فمن أطعم منكم اليوم مسكينًا؟**

---

(١) طريق الهجرتين ص١٧٨، ١٧٩- باختصار، وانظر مدارج السالكين ٣/١٧، والفوائد ص٣٨.

(٢) انظر تفصيل ذلك في مدارج السالكين ٢/٢٧٥، ومقدمة المجموع للنووي ١/٣٨.

قال أبو بكر: أنا. قال: **فمَن عاد منكم اليوم مريضا؟** قال أبو بكر: أنا. فقال رسول الله ﷺ: **ما اجتمعن في امرىء إلا دخل الجنة**»[١].

كما أن هذا الصنف الكريم هم أصحاب التعبد المطلق، فليس لهم غرض في تعبد بعينه يؤثرونه على غيره، بل غرضهم تتبع مرضاة الله تعالى أين كانت، فيعملون على مرضاة الرب تعالى في كل وقت بما هو مقتضىٰ ذلك الوقت ووظيفته[٢].

هذا ما تيسر جمعه والاطلاع عليه من تلك المعالم والله المستعان.

---

(١) أخرجه مسلم ك الزكاة ٢/٧١٣ ح(١٠٢٨).

(٢) انظر توضيح ذلك في مدارج السالكين ١/٨٨.

القسم الثاني
موضوعات سلوكية

موضوعات سلوكية

يتضمن هذا القسم نماذج مختصرة لموضوعات سلوكية وصفات أخلاقية لأهل السنة، وإذا كان القسم الأول يعدّ تنظيراً وعلماً، فإن هذا القسم يعدّ تطبيقاً وعملاً، ولذا سنورد في هذا القسم أمثلة واقعية وأحداثاً عملية من حياة السلف الصالح، كما نذكر ما أُثر عنهم من مقولات جامعة ونافعة في بعض جوانب السلوك، لعل الله تعالى أن يجعل ذلك حافزاً على التأسي بهم والسير على نهجهم، وكما قال حمدون القصار: «من نظر في سيرة السلف عرف تقصيره وتخلُّفه عن درجات الرجال»[1].

«وذُكر عند مخلد بن الحسين أخلاق الصالحين فقال:

لا تعرضنَّ لذكرنا في ذكرهم ... ليس الصحيح إذا مشىٰ كالمقعد[2]

---

(١) صفة الصفوة ٤/١٢٢.

(٢) المرجع السابق ٤/٢٦٦.

١ـ أهل السنة يعلمون الحق ويرحمون الخلق

من الصفات السلوكية المهمة لأهل السنة أنهم يعلمون الحق ويرحمون الخلق، فإنهم أصحاب هدي واتباع، وأرباب عمل واقتداء، ومن ثم كانوا أعلم الناس بالحق ـ حيث يقبلون الحق حيث كان ومع من كان ـ، وأحرص الناس الناس على تبليغ الدين والدعوة إليه، ومنابذة أهل الأهواء والبدع، وفي نفس الوقت فإنهم يرحمون الخلق، ويريدون لهم الخير والهدىٰ، ولذا كانوا أوسع الناس رحمةً وأعظمهم شفقة، وأصدقهم نصحًا.

يقول ابن تيمية في هذا المقام:

«وأئمة السنة والجماعة وأهل العلم والإيمان فيهم العلم والعدل والرحمة، فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة، ويعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم كما قال تعالىٰ: ﴿**كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمّنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوىٰ**﴾ ويرحمون الخلق فيريدون لهم الخير والهدىٰ والعلم، لايقصدون الشر لهم ابتداء، بل إذا عاقبوهم وبينوا خطأهم وجهلهم وظلمهم، كان قصدهم بذلك بيان الحق ورحمة الخلق»[1].

ويقول ابن رجب في هذا الصدد:

«كان خلفاء الرسل وأتباعهم من أمراء العدل وأتباعهم وقضاتهم لا يدعون

---

(١) الرد على البكري ص ٢٥٦، ٢٥٧.

إلى تعظيم نفوسهم ألبتة، بل إلى تعظيم الله وحده وإفراده بالعبودية والإلهية ومنهم من كان لا يريد الولاية إلا للاستعانة بها على الدعوة إلى الله وحده.

وكانت الرسل وأتباعهم يصبرون على الأذىٰ في الدعوة إلى الله ويتحملون في تنفيذ أوامر الله من الخلق غاية المشقة وهم صابرون بل راضون بذلك، كما كان عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز رحمه الله يقول لأبيه في خلافته: إذا حُرص على تنفيذ الحق وإقامة العدل يا أبتِ لوددتُ أني غَلَتْ بي وبك القدور في الله عز وجل، **وقال بعض الصالحين**[1]: وددت أن جسمي قُرِض بالمقاريض وأن هذا الخلق كلهم أطاعوا الله عز وجل» ومعنىٰ هذا أن صاحب هذا القول قد يكون لحظ نصح الخلق والشفقة عليهم من عذاب الله وأحب أن يفديهم من عذاب الله بأذىٰ نفسه، وقد يكون لحظ جلال الله وعظمته وما يستحقه من الإجلال والإكرام والطاعة والمحبة، فودّ أن الخلق كلهم قاموا بذلك وإن حصل له في نفسه غاية الضرر»[2].

إن التزام أهل السنة بالعلم والعدل أورثهم هذه الخصلة الرفيعة، فمسلك أهل السنة قائم على العلم والعدل لا الجهل والظلم، حتى كان أهل السنة لكل طائفة من المبتدعة خير من بعضهم لبعض «بل هم للرافضة خير وأعدل من بعض الرافضة لبعض. وهذا مما يعترفون هم به، ويقولون أنتم تنصفوننا ما لا ينصف بعضنا بعضًا»[3].

لقد تلقىٰ أهل السنة هذه الصفة الحميدة من صاحب الخلق العظيم نبينا محمد ﷺ، فلقد كان عليه الصلاة والسلام أعلم الناس بالحق وأعظم الناس رحمةً ورأفة، فمن أجل إظهار الحق بلّغ الرسالة، وأدىٰ الأمانة، وجاهد في الله حق

---

(١) هو زهير بن عبد الرحمن البابي، وانظر حلية الأولياء ١٠/ ١٥٠.

(٢) شرح حديث «ما ذئبان جائعان» ص١٩، وانظر جامع العلوم والحكم ٢/ ٢٥٥.

(٣) منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والقدرية ٥/ ١٥٧.

جهاده، ومن أجل نصرة الحق نجده ﷺ يغضب أشد الغضب فكأنما تفقأ في وجهه حبّ الرّمان من الغضب، وكلّ ذلك حين رأىٰ بعض أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ يتخاصمون في القدر، ثم قال: «**مهلاً ياقوم بهذا أهلكت الأمم من قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضه بعضًا، وإنما نزل يصدّق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه**»(١).

ومع ذلك كله فقد كان ﷺ هو الرحمة المهداة، قال تعالى: ﴿**لقد جاءكم رسولٌ من أنفسِكم عزيز عليه ما عنتُّم حريصٌ عليكم بالمؤمنين رؤوفٌ رحيم**﴾.

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه، إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم لله بها(٢).

وتأمّل ـ أخي القاريء ـ ما لقيه ﷺ من أنواع الأذىٰ في سبيل دعوته ونصحه للخلق، ولما سألته عائشةُ رضي الله عنها قائلة: يارسول الله هل أتىٰ عليك يوم كان أشد من يوم أحد، فقال: **لقد لقيت من قومك وكان أشدّ ما لقيت منهم يوم العقبة إذا عرضتُ نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم علىٰ وجهي فلم استفق إلا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك ومارددوا عليك وقد بعث إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، قال: فناداني ملك الجبال وسلّم عليّ ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك وأنا ملك الجبال وقد بعثني إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق**

---

(١) أخرجه أحمد ٢/١٨١، ١٩٥، وابن ماجه ح(٨٥).

(٢) أخرجه البخاري، ك المناقب ح(٣٥٦٠)، ومسلم، ك الفضائل ٥ح (٢٣٢٧).

عليهم الأخشبين، فقال له رسول الله ﷺ: «**بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**»(١).

بل إن الرحمة بالخلق والتمسك بالحق خصلة من خصال الأنبياء كما هو ظاهر في قصصهم عليهم السلام، ومثال ذلك ما جاء في حديث ابن مسعود رضي الله عنه حيث قال: كأني انظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًّا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون(٢).

ولقد سار سلف الأمة على ذلك، فهذا أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه يقول الحق ويرحم الخلق، فإنه لما رأىٰ سبعين رأسًا من الخوارج وقد جزت تلك الرؤوس ونُصبت على درج دمشق، فقال رضي الله عنه إعلامًا بالحق: سبحان الله، ما يصنع الشيطان ببني آدم، كلاب جهنم، شر قتلىٰ تحت ظل السماء.

ثم بكىٰ قائلاً: بكيتُ رحمة لهم حين رأيتهم كانوا من أهل الإسلام(٣).

وكان أويس القرني ـ رحمه الله ـ إذا أمسىٰ تصدّق بما في بيته من الفضْل من الطعام والشراب، ثم يقول: اللهم من مات جوعًا فلا تؤاخذني به، ومن مات عريانًا فلا تؤاخذني به(٤).

وكان عمر بن عبد العزيز ـ رحمه الله ـ يقول: يا ليتني عملتُ فيكم بكتاب الله وعملتُم به، فكلما عملت فيكم بسنة وقع مني عضو حتى يكون آخر شيء منها خروج نفسي(٥).

---

(١) أخرجه البخاري، ك بدء الخلق، ح(٣٢٣١)، ومسلم، ك الجهاد ح(١٧٩٥).

(٢) أخرجه البخاري ك أحاديث الأنبياء ح(٣٤٧٧)، ومسلم ح (١٧٩٢).

(٣) انظر تفصيل ذلك في الأعتصام للشاطبي ١/ ٧١-٧٣، والأداب الشرعية لابن المفلح ٢/ ٢٤.

(٤) صفة الصفوة ٣/ ٥٤.

(٥) انظر جامع العلوم والحكم ١/ ٢٢٣.

وقال الفضيل بن عياض ـ رحمه الله ـ: إني لأستحي من الله أن أشبع حتى أرى العدل قد بسط، وأرى الحق قد قام[١].

وهذا الإمام أبو عبد الله أحمد بن حنبل ـ رحمه الله ـ يثبت على كلمة الحق لا يخشى في الله لومة لائم، فيقول بكل يقين: القرآن كلام الله غير مخلوق، ويصبر الإمام على ما أصابه من أنواع الإيذاء والفتنة من قبل رؤوس المعتزلة ـ آنذاك ـ ومن تبعهم من خلفاء كالمأمون والمعتصم والواثق.

«ولما جاءه أحدهم وهو في السجن فقال: يا أبا عبد الله عليك رجال، ولك صبيان، وأنت معذور ـ كأنه يسهل عليه الإجابة ـ، فقال الإمام أحمد: إن كان هذا عقلك فقد استرحت»[١].

ومما قاله الإمام الذهبي ـ رحمه الله ـ في شأن محنة الإمام أحمد:

«الصدع بالحق عظيم، يحتاج إلى قوة وإخلاص، فالمخلص بلا قوة يعجز عن القيام به، والقوي بلا إخلاص يخذل، فمن قام بهما كاملاً، فهو صدّيق، ومن ضَعُف فلا أقل من التألم والإنكار بالقلب، وليس وراء ذلك إيمان، فلا قوة إلا بالله»[٢].

لقد كان الإمام أحمد بن حنبل رجلاً لينًا، لكن لما رأىٰ الناس يجيبون ويعرضون عن الحق، عندئذ ذهب ذلك اللين، وانتفخت أوداجه واحمرت عيناه[٣].

ومع ذلك البطش والجلد والسجن من قبل أولئك الخلفاء إلا أننا نجد هذا الإمام يقول:

«**كل من ذكرني ففي حلّ إلا مبتدعًا، وقد جعلت أبا إسحاق ـ يعني المعتصم ـ في حل**، ورأيت الله يقول: ﴿**وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله**

---

(١) حلية الأولياء ٨/١٠٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/٢٣٤.

(٣) المرجع السابق ٩/٢٣٨.

لكم﴾ وأمر النبي ﷺ أبا بكر بالعفو في قصه مسطح ،ـ ثم قال ـ وما ينفعك أن يعذِّبَ الله أخاك المسلم في سبيلك؟»[١].

وهـاك مثـالاً آخر لأئمة أهل السنة، فهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يقرر عقيدة السلف الصالح، ويجاهد بلسانه وسنانه طوائف الزيغ والانحراف، فيرد على أهـل الكتـاب، ويقمـع أكـاذيب البـاطنية، ويـنـاظـر الصـوفية وأهل الكلام . . . وكل ذلك من أجل بيان الحق وتبليغه.

وفي نفس الـوقت فقد كان رحمه الله من أعظم الناس شفقة وإحسانًا، وإليك المشاهد الدالة على ذلك:

يقول تلميذه البار ابن القيم: «جئت يومًا مبشرًا له [أي لابن تيمية] بموت أكبر أعدائه، وأشدهم عداوة وأذىٰ له، فنهرني وتنكر لي واسترجع، ثم قام من فوره إلى بيت أهله فعزاهم، وقال إني لكم مكانه، ولا يكون لكم أمر تحتاجون فيه إلى مساعدة إلا وساعدتكم فيه، فسروا به ودعوا له»[٢].

ولما مرض ابن تيمية ـ مرض الوفاة ـ دخل عليه أحدهم فاعتذر له، والتمس منه أن يحلله فأجابه الشيخ: «إني قد أحللتك وجميع من عاداني وهو لا يعلم أني على الحق. وإني قد أحللت السلطان المعظم الملك الناصر من حبسه إياي، كونه فعل ذلك مقلدًا غيره. . .»[٣].

وقال أحد خصومه ـ ابن مخلوف ـ: «ما رأينا مثل ابن تيمية، حرّضنا عليه فلم نقدر عليه، وقدر علينا فصفح عنا وحاجج عنا»[٤].

وأخيرًا أدعو إخواني إلى ضرورة معرفة الحق ورحمة الخلق، وأن نهتم بتحقيق العلم والعدل في هذا الشأن، وأن نسعىٰ جادين صادقين إلى تحقيق منهج أهل السنة عقيدة وسلوكًا، والله المستعان.

---

(١) المرجع السابق ٩/٢٦١، وانظر مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي ص٢٢١.

(٢) مدارج السالكين ٢/٣٤٥. (٣) الأعلام العلية ص٨٢. (٤) البداية والنهاية ١٤/٥٤.

٢ ـ تزكيـة النفـوس

في خضم شؤون الحياة المعاصرة، وكثرة مشاغلها، وتعدد متطلباتها، قد ننسىٰ أن نتعـاهد أنفسنا بالتربية والتزكية، ومن ثم تقسو القلوب، ونتثاقل عن الباقيات الصالحات، ونركن إلى متاع الدنيا وزخرفها.

ولأجل ذلك نتحدث عن تزكية النفوس من خلال ما يلي:

أ ـ أهميـة الموضـوع:

ـ مما يوضح أهمية هذا الموضوع أن الله تعالى أقسم أقسامًا كثيرة ومتوالية على أن صلاح العبد وفلاحه منوط بتزكية نفسه، فقال سبحانه: ﴿**ونفس وما سواها. فألهمها فجورَها وتقواها. قد أفلح من زكّاها. وقد خاب من دسّاها**﴾ [الشمس، آية ٧ـ١٠].

وقال سبحانه: ﴿**قد أفلح من تزكى. وذكر اسم ربه فصلىٰ**﴾ [الأعلى، آية ١٤، ١٥].

ـ وكان الأنبياء عليهم السلام يدعون إلى تزكية النفوس، فهذا موسىٰ عليه السلام يقول لفرعون: ﴿**هل لك إلى أن تزكى. وأهدِيَك إلى ربك فتخشىٰ**﴾ [النازعات، آية ١٨، ١٩].

وقال تعالى عن نبينا محمد ﷺ: ﴿**هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكّيهم ويعلمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبلُ لفي ضلالٍ مبين**﴾ [الجمعة، آية ٢].

ـ وتزكية النفوس سبب الفوز بالدرجات العلىٰ، والنعيم المقيم، كما قال عزّ وجل:

﴿ومن يأته مؤمنًا قد عمل الصالحاتِ فأولئك لهم الدرجاتُ العلىٰ. جنات عدن تجري من تحتها الأنهارُ خالدين فيها وذلك جزاءُ من تزكّى﴾ [طه، آية ٧٥، ٧٦] أي طهّر نفسه من الدنس والخبث والشرك، وعبد الله وحده لا شريك له، واتبع المرسلين فيما جاءوا به من خبر وطلب[١].

- وكان من دعائه ﷺ: «**اللهم آت نفسي تقواها. وزكِّها أنت خير من زكاها. أنت وليّها ومولاها**»[٢].

ب - **معنى التزكية:**

التزكية لغةً: الطهارة والنماء والزيادة.

والمراد بها ها هنا: إصلاح النفوس وتطهيرها، عن طريق العلم النافع.

والعمل الصالح، وفعل المأمورات وترك المحظورات.

وقد بيّن النبي ﷺ معنىٰ تزكية النفس بقوله: «**أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان**».

ونسوق الحديث بتمامه، حيث قال ﷺ:

«**ثلاث من فعلهن فقد ذاق طعم الإيمان. من عَبَد الله عز وجل وحده بأنه لا إله إلا هو، وأعطىٰ زكاة ماله طيبة بها نفسه في كلّ عام، ولم يعط الهرمة، ولا الدرنة، ولا المريضة، ولكن من أوسط أموالكم، فإن الله عزّ وجلّ لم يسألكم خيرها، ولم يأمركم بشرها، وزكىٰ نفسه، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان**»[٣].

فجعل النبي ﷺ تزكية النفس إحدىٰ الخصال الموجبة لذوق طعم الإيمان،

---

(١) انظر تفسير ابن كثير ٣/١٥٦.

(٢) أخرجه مسلم. ك الذكر والدعاء ح(٢٧٢٢).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١/٢٠١، والبيهقي في السنن ٤/٩٥، وصححه الألباني في «الصحيحة» ح(١٠٤٦).

وفسّر التزكية بإحدىٰ مراتب الإحسان ـ وهو أعلىٰ مقامات الدين ـ وهو أن يعبد الله تعالىٰ على أن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته، ويعلم باطنه وظاهره، ولا يخفىٰ عليه شيء من أمره[١].

وإليك بعض كلام أهل العلم في بيان معنىٰ التزكية على النحو الآتي:

يقول القرطبي ـ رحمه الله:

«الزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، يقال: زكا الزرع والمال يزكو إذا كثر وزاد، وقيل أصلها الثناء الجميل، ومنه زكّى القاضي الشاهد، فكان من يُخرج الزكاة يحصل لنفسه الثناء الجميل، وقيل الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال: زكا فلان أي طهر من دنس الجرحة والإغفال. . .»[٢].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ:

«والزكاة ـ في اللغة ـ النماء والزيادة في الصلاح. يقال زكا الشيء إذا نما في الصلاح، فالقلب يحتاج أن يتربىٰ فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن أن يربىٰ بالأغذية المصلحة له. ولابد مع ذلك من منع ما يضره، فلا ينمو البدن إلا بإعطاء ما ينفعه ودفع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره»[٣].

ويقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«الزكاة في اللغة هي النماء والزيادة في الصلاح، وكمال الشيء، يقال: زكا الشيء إذا نما، قال تعالىٰ: ﴿**خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها**﴾ [التوبة، آية ١٠٣] فجمع بين الأمرين: الطهارة والزكاة لتلازمهما، فإن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن، فكما أن البدن إذا استفرغ

---

(١) انظر جامع العلوم والحكم ١/١٢٨، ١٢٩.

(٢) تفسير القرطبي ١/٣٤٣.= باختصار وانظر تفسير القرطبي ٢٠/٧٧.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٩٦، وانظر ١٠/٦٢٨.

من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوق ولا ممانع، فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة فقد استفرغ من تخليطه، فخلصت قوة القلب وإرادته للخير، فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الردية، فزكا ونما، وقوي واشتد، وجلس على سرير ملكه، ونفذ حكمه في رعيته، فسمعتْ له وأطاعت، فلا سبيل إلى زكاته إلا بعد طهارته»(١).

حـ - وسائل تزكية النفس:

نذكِّر - ابتداءً - أن تزكية النفوس عن طريق الشرع، فلا سبيل إلى تزكية النفوس إلا من طريق الرسل عليهم السلام.

يقول ابن القيم:

«وتزكية النفوس أصعب من علاج الأبدان وأشدّ، فمن زكىٰ نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة، التي لم يجيء بها الرسل، فهو كالمريض الذي يعالج نفسه برأيه، وأين يقع رأيه من معرفة الطبيب؟ فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد، والتسليم لهم»(٢).

ويقول أيضا:

«وأما الأبدان الزاكية فهي التي زكت بطاعة الله، ونبتت على أكل الحلال، فمتىٰ خلصت الأبدان من الحرام، وأدناس البشرية، التي ينهىٰ عنها العقل والدين والمروءة، وطهرت الأنفس من علائق الدنيا، زكت أرض القلب، فقبلت بذر العلوم والمعارف، فإن سُقيت - بعد ذلك - بماء الرياضة الشرعية النبوية المحمدية - وهي التي لا تخرج عن علم، ولا تبعد عن واجب، ولا تعطل سنة - أنبتت من كل

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٧٧= باختصار.

(٢) مدارج السالكين ٢/٣١٥.

زوج كريم، من علم وحكمة وفائدة. . . . »[١].

وتزكية النفوس تتحقق بأمور كثيرة، نذكر جملة منها بإيجاز:

* **التوحيد** : إن أعظم وآكد طريق إلى تزكية النفوس: تحقيق التوحيد:

قال تعالى: ﴿**وويل للمشركين. الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون**﴾ [فصلت، آية ٦، ٧].

«قال أكثر المفسرين من السلف ومن بعدهم: الزكاة ـ ها هنا ـ هي التوحيد، شهادة أن لا إله إلا الله، والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوىٰ الحق من القلب، وذلك طهارته، وإثبات إلهيته سبحانه، وهو أصل كل زكاة ونماء»[٢].

فسمىٰ الله تعالى ـ في الآية السابقة ـ التوحيد زكاةً، كما وسم سبحانه الشرك بالنجاسة، فقال سبحانه: ﴿**يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس**﴾ [التوبة، آية ٢٨].

يقول ابن القيم:

«التوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنىٰ شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يكون يؤثر فيه أدنىٰ أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا أدنىٰ شيء يؤثر فيها. . . »[٣].

وأما الشرك فهو أنجس النجاسة، وأخبثها وأشنعها[٤].

والتوحيد زكاة، حيث ينمي ثواب الأعمال الصالحة ويبارك فيها، فإن

---

(١) المرجع السابق ٢/٤٧٤.

(٢) إغاثة اللهفان ١/٨١، وانظر القرطبي: ١٩/١٩٩، ومجموع الفتاوى لابن تيمية ١٠/٦٣٣، وتفسير ابن كثير ٤/٩٤.

(٣) الفوائد ص١٨٤.

(٤) انظر إغاثة اللهفان ٢/٩٨.

التوحيد إذا تمكنّ من طاعة ما، فكانت هذه الطاعة خالصةً لوجه الله تعالىٰ، فإن أجرها عظيم وثوابها جزيل[١]. وأما الشرك فهو محبط لجميع القربات، وموجب للخلود في نار جهنم، والشرك ـ أيضًا ـ خذلان وحرمان، كما قال تعالى: ﴿**لا تجعل مع الله إلهًا آخر فتقعد مذمومًا مخذولاً**﴾ [الإسراء، آية ٢٢]. أي مذمومًا لا حامد لك، ومخذولاً لا ناصر لك[٢].

* **الصلاة**: فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسل فيه كل يوم خمسًا. ما تقول ذلك يُبقي من دَرَنه؟ قالوا: لا يُبقي من درنه شيئًا. قال: فذلك مثل الصلوات الخمس يمحو الله بهن الخطايا**»[٣].

قال ابن العربي: «وجه التمثيل أن المرء كما يتدنس بالأقذار المحسوسة في بدنه وثيابه، ويطهره الماء الكثير، فكذلك الصلوات تطهر العبد عن أقذار الذنوب حتى لا تبقي له ذنبًا إلا أسقطته»[٤].

* **الصدقة**: قال تعالىٰ: ﴿**خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلاتك سَكَنٌ لهم والله سميع عليم**﴾ [التوبة، آية ١٠٣].

يقول ابن تيمية: «إن الزكاة تستلزم الطهارة، قال تعالىٰ: ﴿**خذ من أموالهم صدقةً تطهرهم**﴾ من الشر «**وتزكيهم**» بالخير. . .

فقوله ﴿**خذ من أموالهم**﴾ دليل على أن عمل الحسنات يطهر النفس ويزكيها من الذنوب السالفة، فإنه قاله بعد قوله سبحانه: ﴿**وآخرون اعترفوا. . .**﴾ [التوبة، آية ١٠٢].

---

(١) انظر منهاج السنة النبوية لابن تيمية ٦/٢١٨.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/٤٥٨، وإغاثة اللهفان ٢/٦٦.

(٣) أخرجه البخاري، ك مواقيت الصلاة ح(٥٢٨)، ومسلم ح (٦٦٧).

(٤) فتح الباري ٢/١١، ١٢.

فالتوبة والعمل الصالح يحصل بهما التطهير والتزكية»[١].

وقال ﷺ: «**إنما الصدقة أوساخ الناس يغسلونها عنهم**»[٢].

ولما سأل العباس رسول الله ﷺ أن يستعمله على الصدقة، فقال عليه الصلاة والسلام: «**ما كنت لاستعملك على غسالة ذنوب الناس**»[٣].

* **ترك المحرمات عمومًا:**

يقول ابن تيمية في هذا الشأن: «النفس والأعمال لا تزكوا حتى يزال عنها ما يناقضها، ولا يكون الرجل متزكيًا إلا مع ترك الشر، فإنه يدنس النفس ويدسيها. قال ابن قتيبة: «**دساها**» أي أخفاها بالفجور والمعصية، فالفاجر دسّ نفسه، أي قمعها وخباها، وصانع المعروف شهر نفسه ورفعها، وكانت أجواد العرب تنزل الربىٰ لتشهر أنفسها، واللئام تنزل الأطراف والوديان»[٤].

ويقول ابن القيم: «إن زكاة القلب موقوفة على طهارته، كما أن زكاة البدن موقوفة على استفراغه من أخلاطه الرديئة الفاسدة قال تعالىٰ: ﴿**ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته ما زكىٰ منكم من أحدٍ أبداً ولكنَّ الله يزكّي من يشاء والله سميع عليم**﴾ [النور، آية ٢١]. ذكر ذلك سبحانه عقيب تحريم الزنا والقذف ونكاح الزانية، فدلّ على أن التزكي هو باجتناب ذلك»[٥].

وقد أمر الله تعالى بغض البصر وحفظ الفرج فقال سبحانه: ﴿**قل للمؤمنين يغضّوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكىٰ لهم إن الله خبير بما يصنعون**﴾ [النور، آية ٣٠].

---

(١) مجموع الفتاوىٰ ١٠/٦٣٤، ٦٣٥- باختصار.

(٢) أخرجه مالك، ك الصدقة: ح(١٥)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١/٣٤١.

(٣) أخرجه ابن خزيمة، ح(٢٣٤٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب ١/٣٤١.

(٤) مجموع الفتاوىٰ ١٠/٦٢٩- باختصار، وانظر: ١٠/١٨٨.

(٥) إغاثة اللهفان ١/٨١.

فاجتناب الفواحش ـ ماظهر منها ومابطن ـ طهر ونقاء وعفافٌ، كما سمىٰ الشارع الفواحش ـ من الزنا واللواط ـ نجاسات وخبائث وقاذورات.

«قال تعالى: ﴿**ولوطًا آتيناه حكمًا وعلمًا ونجيناه من القريةِ التي كانت تعملُ الخبائثَ إنهم كانوا قومَ سوءٍ فاسقين**﴾ [الأنبياء، آية ٤٧].

وقالت اللوطية: ﴿**أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أُناسٌ يتطهرون**﴾ [النمل، آية ٥٦]. فأقروا مع شركهم وكفرهم أنهم هم الأخابث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له.

وقال تعالى في حقّ الزناة: ﴿**الخبيثاتُ للخبيثينَ والخبيثونَ للخبيثاتِ**﴾ [النور، آية ٢٦][1].

وقال ﷺ: «**من أصابَ من هذه القاذورات شيئًا. فليستتر بستر الله، فإنه من يبدي لنا صفحته، نُقِم عليه كتابَ الله**»[2].

* **محاسبة النفس:**

«زكاة النفس وطهارتها موقوفة على محاسبتها، فلا تزكو ولا تطهر ولا تصلح ألبتة إلا بمحاسبتها.

قال الحسن رحمه الله: إن المؤمن ـ والله ـ لا تراه إلا قائمًا على نفسه ما أردت بكلمة كذا؟ ما أردت بأكلة؟ ما أردت بمدخل كذا ومخرج كذا؟ ما أردت بهذا؟ مالي ولهذا؟ والله لا أعود إلى هذا. ونحو هذا من كلام.

فبمحاسبة النفس يطلع على عيوبها ونقائصها، فيمكنه السعي في إصلاحها»[3].

«**وأضر ما على المكلف: الإهمال، وترك المحاسبة والاسترسال، وتسهيل**

---

(١) إغاثة اللهفان ١/٩٧.

(٢) أخرجه مالك، ك الحدود ح(١٢).

(٣) مدارج السالكين ٢/٥١٠، وانظر جامع العلوم والحكم ٢/٩١.

الأمور وتمشيتها، فإن هذا يؤول به إلى الهلاك، وهذه حال أهل الغرور، يغمض عينه عن العواقب، ويُمشِّي الحال، ويتكل على العفو، فيهمل محاسبة نفسه والنظر في العاقبة، وإذا فعل ذلك سهل عليه مواقعة الذنوب وأنس بها، وعسر عليها فطامها»[1].

«ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده:

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همته وإرادته، ولا يبادر بالعمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

النوع الثاني: محاسبة النفس بعد العمل، وهو ثلاثة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله، فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيرًا له من فعله.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمر مباح أو معتاد: لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة أو أراد به الدنيا؟»[2].

إن الناظر إلى حال الكثير منا يرىٰ إهمالاً وتقصيرًا في محاسبة النفس، واشتغالاً بعيوب الآخرين، مما أورث عجبًا وتأليًا، وكبرًا وغرورًا.

يقول ابن القيم ـ رحمه الله ـ:

«من علامات الإنابة: ترك الاستهانة بأهل الغفلة والخوف عليهم، مع فتحك باب الرجاء لنفسك. فترجو لنفسك الرحمة، وتخشىٰ على أهل الغفلة النقمة، ولكن ارج لهم الرحمة، واخش على نفسك النقمة، فإن كنت لابد مستهينًا بهم ماقتًا لهم، لانكشاف أحوالهم لك، ورؤية ما هم عليه، فكن لنفسك أشد مقتًا منك لهم، وكن أرجىٰ لهم لرحمة الله منك لنفسك.

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٣٦.

(٢) إغاثة اللهفان ١/١٣٤، ١٣٥= باختصار.

قال بعض السلف[١]: لن تفقه كل الفقه حتى تمقت الناس في ذات الله، ثم ترجع إلى نفسك فتكون لها أشد مقتًا»[٢].

ولما كان التقصير ظاهرًا في محاسبة أنفسنا، نسوق جملة من كلام السلف في هذا الشأن لعله أن يكون حافزًا للتأسي بهم.

يقول عمر الفاروق رضي الله عنه: «كفىٰ بالمرء إثمًا أن يستبين له من الناس ما يخفىٰ عليه من نفسه، ويمقت الناس فيما يأتي»[٣].

«**وقال الحسن البصري**: يا ابن آدم إنك لا تصيب حقيقة الإيمان حتى لا تعيب الناس بعيب هو فيك، وحتى تبدأ بعلاج ذلك العيب من نفسك فتصلحه، فإذا فعلت ذلك لم تصلح عيبًا إلا وجدت عيبًا آخر لم تصلحه، فإذا فعلت ذلك كان شغلك في خاصة نفسك، وأحبّ العباد إلى الله من كان كذلك»[٤].

«**وقيل للربيع بن خثيم**: ألا تذكر الناس؟ فقال: ما أنا عن نفسي براض فأتفرغ من ذمها إلى أن أذم الناس، إن الناس خافوا الله في ذنوب الناس وأمِنوه على ذنوبهم»[٥].

«**وقال ميمون بن مهران** ـ رحمه الله ـ: لا يكون الرجل من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه، حتى يعلم من أين مطعمه، ومن أين ملبسه، ومن أين مشربه، أمن حلال ذلك أم من حرام»[٦].

«**وقال عون بن عبد الله** ـ رحمه الله ـ: ما أحسب أحدًا تفرّغ لعيب الناس

---

(١) لخالد بن معدان ـ رحمه الله ـ مقالة قريبة مما أروده ابن القيم. انظر سير أعلام النبلاء ٤/٥٣٩.

(٢) مدارج السالكين ١/٤٣٨.

(٣) الزهد لابن المبارك ص٢٣٤.

(٤) صفة الصفوة ٣/٢٣٤.

(٥) صفة الصفوة ٣/٦٠، وانظر الورع للإمام أحمد ص٧٤.

(٦) حلية الأولياء ٤/٨٩.

إلا من غفلة غفلها عن نفسه»[١].

«**وقال بكر المزني** ـ رحمه الله ـ: إذا رأيتم الرجل موكّلاً بعيوب الناس، ناسيًا لعيبه فاعلموا أنه قد مُكِر به»[٢].

«**وقال السري السقطي**: من علامة الاستدراج العمىٰ عن عيوب النفس»[٣].

وقال أبو عثمان الحيري: الخوف من الله يوصلك إليه، والعجب يقطعك عنه، واحتقار الناس في نفسك مرض لا يداوىٰ»[٤].

«**وقال أحمد بن عاصم الأنطاكي**: أنفع الصدق أن تقر لله عز وجل بعيوب نفسك» ـ ثم قال ـ «وسُدّ سبيل العجب بمعرفة النفس»[٥].

وفي ختام هذه السطور أسأل الله تعالى أن يزكي نفوسنا فهو سبحانه خير من زكاها، وهو وليّها ومولاها.

---

(١) حلية الأولياء ٤/٢٤٩، وانظر صفة الصفوة ٣/١٠١.

(٢) صفة الصفوة ٣/٢٤٩.

(٣) صفة الصفوة ٢/٣٧٦.

(٤) صفة الصفوة ٤/١٠٥.

(٥) صفة الصفوة ٤/٢٧٧.

٣ ـ أعمال القلوب

أ ـ أهمية الموضوع :

إن أعمال القلوب[١] من أهم الواجبات، وأعظم القربات، فهي واجبة في كل وقت وعلى جميع المكلفين، كما أنها آكد شعب الإيمان، فإذا زال عمل القلب زال الإيمان، كما أن صلاح سائر الأعمال منوط بصلاح القلب، فإن أعمال القلب هي الأصل، وأعمال الجوارح تبع.

وإليك أقوال بعض الأئمة في بيان عظم أعمال القلوب.

يقول العز بن عبد السلام ـ رحمه الله ـ :

«مبدأ التكاليف كلها ومصدرها القلب، وصلاح الأجساد موقوف على صلاح القلوب، وفساد الأجساد موقوف على فساد القلوب، ولذلك قال النبي ﷺ : «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**»[٢] أي إذا صلحت بالمعارف ومحاسن الأحوال والأعمال صلح الجسد كله بالطاعة والإذعان، وإذ فسدت بالجهالات ومساوىء الأحوال والأعمال فسد الجسد كله بالفسوق والعصيان»[٣].

ويقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ عن أعمال القلوب :

«وهي من أصول الإيمان وقواعد الدين، مثل محبة الله ورسوله والتوكل على

---

(١) أعمال القلوب مثل: الإخلاص والخضوع والحبّ والخوف والرجاء والتوكل ونحوها. انظر: الإيمان لابن منده ٢/٣٦٢، وقواعد الأحكام للعز بن عبد السلام ١/١٨٩.

(٢) أخرجه البخاري ك الإيمان، ح(٥٢) ومسلم ك المساقاة، ح(١٥٩٩).

(٣) قواعد الأحكام ١/١٦٧.

الله وإخلاص الدين له، والشكر له، والصبر على حكمه، والخوف منه، والرجاء له. . . فهذه الأعمال جميعها واجبة على الخلق ـ المأمورين في الأصل ـ باتفاق أئمة الدين، والناس فيها على ثلاث درجات كما هم في أعمال الأبدان على ثلاث درجات ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات»[١].

ويقول أيضًا: «إن أصل الدين هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأن الأعمال الظاهرة لا تنفع بدونها، وكما قال النبي ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب**».

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: القلب ملك، والأعضاء جنوده. فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده»[٢].

ويقول ـ في موضع ثالث ـ: «والدين القائم بالقلب من الإيمان علمًا وحالاً هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع وهي كمال الإيمان»[٣].

كما يقول أيضًا: «وجميع هذه الأعمال القلبية فروض على الأعيان باتفاق أهل الإيمان، ومن تركها فهو إما كافر، وإما منافق لكن الناس هم فيها كما هم في الأعمال الظاهرة. . .»[٤].

ومما قاله ابن القيم ـ رحمه الله ـ في شأن أعمال القلوب ما يأتي:

«وعمل القلب كالمحبة له، والتوكل عليه، والإنابة إليه، والخوف منه، والرجاء له، وإخلاص الدين له، والصبر على أوامره، وعن نواهيه، وعلى أقداره، والرضىٰ به وعنه، والموالاة فيه، والمعادة فيه، والذل له والخضوع، والإخبات إليه، والطمأنينة به، وغير ذلك من أعمال القلوب التي فرضها أفرض من أعمال الجوارح،

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٥، ٦= باختصار.

(٢) مجموع الفتاوى ١٠/١٥.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/٣٥٥.

(٤) شرح حديث أبي ذر «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي» ص٤٥.

ومستحبها أحبّ إلى الله من مستحبها، وعمل الجوارح بدونها إما عديم المنفعة أو قليل المنفعة»[١].

«أعمال القلوب هي الأصل المراد المقصود وأعمال الجوارح تبع ومكملة ومتممة، وأن النية بمنزلة الروح، والعمل بمنزلة الجسد للأعضاء الذي إذا فارق الروح فمواتها، وكذلك العمل إذا لم تصحبه النية فحركة عابث، **فمعرفة أحكام القلوب أهم من معرفة أحكام الجوارح، إذ هي أصلها، وأحكام الجوارح متفرعة عنها**»[٢].

«من تأمّل الشريعة في مصادرها ومواردها، علم ارتباط أعمال الجوارح بأعمال القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأن أعمال القلوب أفرض على العبد من أعمال الجوارح، **فعبودية القلب أعظم من عبودية الجوارح وأكثر وأدوم فهي واجبة في كل وقت**»[٣].

«إذا زال عمل القلب مع اعتقاد الصدق فأهل السنة مجمعون على زوال الإيمان، وأنه لا ينفع التصديق مع انتفاء القلب»[٤].

وقال ابن مفلح ـ رحمه الله ـ:

«صلاح القلوب رأس كل خير، وفسادها رأس كل شر، وفي الصحيحين عنه عليه السلام: «**ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب**» فنسأل الله أن يصلح فساد قلوبنا وقلوب إخواننا المسلمين.

واعلم أنه يحصل بأعمال القلوب من التوكل على الله والاعتماد عليه وغير

---

(١) مدارج السالكين ١/ ١٠١.
(٢) بدائع الفوائد ٣/ ٢٢٤.
(٣) المرجع السابق ٣/ ٢٣٠.
(٤) كتاب الصلاة ص٥٤.

ذلك من الشفاء ما لا يحصل بغيره»[١].

وقال ابن رجب ـ رحمه الله ـ اثناء شرحه لقوله ﷺ: «**ألا وإن في الجسد مضغة . . .**»الحديث «فيه إشارة إلى أن صلاح حركات العبد بجوارحه، واجتنابه للمحرمات واتقاءه للشبهات بحسب صلاح حركة قلبه. فإن كان قلبه سليمًا، ليس فيه إلا محبة الله ومحبة ما يحبه الله، وخشية الله وخشية الوقوع فيما يكرهه، صلحت حركات الجوارح كلها، ونشأ عن ذلك اجتناب المحرمات كلها، وتوقي الشبهات حذرًا من الوقوع في المحرمات.

وإن كان القلب فاسدًا، قد استولىٰ عليه اتباع هواه، وطلب ما يحبه، ولو كرهه الله، فسدت حركات الجوارح كلها، وانبعثت إلى كل المعاصي والمشتبهات بحسب اتباع هوىٰ القلب»[٢].

وقد اهتم السلف الصالح بأعمال القلوب، وسعوا إلى تحقيقها فقهًا وسلوكًا، وإليك بعض أحوالهم في هذا المقام.

«**قال سلمان الفارسي** ـ رضي الله عنه ـ: لكل امريء جواني وبراني، فمن يصلح جوانيه يصلح الله برانيه، ومن يفسد جوانيه يفسد الله برانيه»[٣].

«**وقال الحسن البصري** ـ رحمه الله ـ: داو قلبك فإن حاجة الله إلى عباده صلاح قلوبهم»[٤].

«**وكان للحسن البصري مجلس خاص في منزله**، لا يكاد يتكلم فيه إلّا في معاني الزهد والنسك وعلوم الباطن، فإن سأل إنسان غيرها، تبّرم وقال: إنما خلونا مع إخواننا نتذاكر»[٥].

(١) الآداب الشرعية ٣/١٢٤.
(٢) جامع العلوم والحكم ١/٢١٠، وانظر ١/٥١٢، ٢/٤٧.
(٣) الزهد لابن المبارك (زيادات نعيم بن حماد) ص١٧، حلية الأولياء ١/٢٠٣.
(٤) حلية الأولياء ٢/١٥٧.
(٥) سير أعلام النبلاء ٤/٥٧٩.

«**وقال مسروق**: بحسب الرجل من العلم أن يخشىٰ الله عز وجل، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه»[١].

«**وذُكِر معروف الكرخي** ـ الزاهد ـ عند الإمام أحمد، فقيل: قصير العلم، فقال: أمسك وهل يراد من العلم إلا ما وصل إليه معروف»[٢].

ب ـ وقفة مع عبودية القلب:

إذا تقرر عظم منزلة الأعمال والعبادات القلبية، وعلو شأنها، فإننا نشير إلى حقيقة هذه العبودية من خلال بعض النقول التي سطرها ابن تيمية ـ رحمه الله ـ على النحو التالي.

- «القلب إنما خلق لأجل حبّ الله تعالىٰ، وهذه الفطرة التي فطر الله عليها عباده، كما قال النبي ﷺ: «**كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء**» ثم يقول أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ: اقرأوا إن شئتم: ﴿**فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله**﴾ [الروم، آية ٣٠] أخرجه البخاري ومسلم فالله سبحانه فطر عباده على محبته وعبادته وحده، فإذا تركت الفطرة بلا فساد، كان القلب عارفًا بالله محبًّا له، عابدًا له وحده»[٣].
- «كل من علّق قلبه بالمخلوقات أن ينصروه، أو يرزقوه، أو أن يهدوه خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم متصرفًا بهم، **فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر**، فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة ولو كانت مباحة له يبقىٰ قلبه أسيرًا لها تحكم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها؛ لأنه زوجها، وفي الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، تحكم فيه

---

(١) الزهد للإمام أحمد ص٣٤٩، وانظر حلية الأولياء ٢/ ٩٥، وسير أعلام النبلاء ٤/ ٨.

(٢) سير أعلام النبلاء ٩/ ٣٤٠.

(٣) مجموع الفتاوى ١٠/ ١٣٤، ١٣٥، وانظر: ١٠/ ١٨٨.

به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه»[١].

* «ولن يستغنى القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه، ولا يستعين إلا به، ولا يتوكل إلا عليه، ولا يفرح إلا بما يحبه ويرضاه، ولا يكره إلا ما يبغضه الرب ويكرهه، ولا يوالي إلا من والاه الله، ولا يعادي إلا من عاداه الله، ولا يحب إلا الله، ولا يبغض شيئًا إلا لله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، فكلما قوي إخلاص دينه لله كملت عبوديته واستغناؤه عن المخلوقات، وبكمال عبوديته لله يبرئه من الكبر والشرك»[٢].

* «تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله: أن ينفي عن قلبه ألوهية ما سوى الحق، ويثبت في قلبه ألوهية الحق، فيكون نافيًا لألوهية كل شيء من المخلوقات، مثبتًا لألوهية رب العالمين رب الأرض والسماوات، وذلك يتضمن اجتماع القلب على الله وعلى مفارقة ما سواه»[٣].

جـ - أحكام عبودية القلب:

تحدّث ابن القيم - رحمه الله - عن أحكام العبادات القلبية، فبيّن أن عبودية القلب تشملها الأحكام الخمسة: الواجب، والمستحب، والحرام، والمكروه، والمباح[٤].

- فواجب القلب: كالإخلاص، والتوكل، والمحبة، والصبر، والإنابة، والخوف، والصدق.

فاتفقت الأمة على وجوب هذه الأعمال على القلب من حيث الجملة[٥]، فإن

(١) المرجع السابق ١٠/١٩٣، ١٩٤، وانظر: ١٠/٢١٥.
(٢) المرجع السابق ١٠/١٩٨.
(٣) المرجع السابق ١٠/٢٢٥، وانظر: ١٠/٣٣٧.
(٤) انظر مدارج السالكين ١/١٠٩.
(٥) انظر مدارج السالكين ١/١١٠.

الله تعالى أمر بتلك العبادات القلبية في مواضع كثيرة من كتابه:

فأمر سبحانه بالإخلاص في قوله تعالى: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ [البينة، آية ٥]، وأمر تعالى بالتوكل في مثل قوله سبحانه: ﴿**إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين**﴾ [يونس، آية ٨٤] وأمر تعالى بمحبته، فقال عز وجل: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [التوبة، آية ٢٤] فتوعدهم الله عز وجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلا على فرض لازم، وحتم واجب[١].

بل المحبة أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومُخّها وروحها[٢].

كما أمر تعالى بالصبر والإنابة والخوف والصدق في الآيات التالية:

﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ [آل عمران، آية ٢٠٠].

﴿**وأنيبوا إلى ربكم**﴾ [الزمر، آية ٥٤].

﴿**فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران، آية ١٧٥].

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ [التوبة، آية ١١٩].

قال ابن القيم: «وكل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين»[٣].

وقال رحمه الله: «وأما المحرمات التي على القلب: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والنفاق.

---

(١) انظر استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص٢٧.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/١١١.

(٣) مدارج السالكين ١/١١٠.

الله تعالى أمر بتلك العبادات القلبية في مواضع كثيرة من كتابه:

فأمر سبحانه بالإخلاص في قوله تعالىٰ: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ [البينة، آية ٥]، وأمر تعالى بالتوكل في مثل قوله سبحانه: ﴿**إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكّلوا إن كنتم مسلمين**﴾ [يونس، آية ٨٤] وأمر تعالى بمحبته، فقال عز وجل: ﴿**قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجُكم وعشيرتكم وأموالٌ اقترفتموها وتجارةٌ تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهادٍ في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين**﴾ [التوبة، آية ٢٤] فتوعدهم الله عز وجل على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله، والوعيد لا يقع إلا على فرض لازم، وحتم واجب[١].

بل المحبة أفرض الواجبات، إذ هي قلب العبادة المأمور بها، ومُخّها وروحها[٢].

كما أمر تعالى بالصبر والإنابة والخوف والصدق في الآيات التالية:

﴿**يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾ [آل عمران، آية ٢٠٠].

﴿**وأنيبوا إلى ربكم**﴾ [الزمر، آية ٥٤].

﴿**فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران، آية ١٧٥].

﴿**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**﴾ [التوبة، آية ١١٩].

قال ابن القيم: «وكل واحد من هذه الواجبات القلبية له طرفان، واجب مستحق وهو مرتبة أصحاب اليمين، وكمال مستحب، وهو مرتبة المقربين»[٣].

وقال رحمه الله: «وأما المحرمات التي على القلب: فالكبر، والرياء، والعجب، والحسد، والنفاق.

---

(١) انظر استنشاق نسيم الأنس لابن رجب ص٢٧.

(٢) انظر مدارج السالكين ١/١١١.

(٣) مدارج السالكين ١/١١٠.

وهي نوعان: كفر ومعصية، فالكفر: كالشك، والنفاق، والشرك وتوابعها.
والمعصية نوعان: كبائر وصغائر، **فالكبائر**: كالكبر، والفخر، والخيلاء، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله، والفرح والسرور بأذىٰ المسلمين، والشماتة بمصيبتهم، ومحبة أن تشيع الفاحشة فيهم، وحسدهم على ما آتاهم الله من فضله، وتمني زوال ذلك عنهم، وتوابع هذه الأمور التي هي أشد تحريمًا من الزنا، وشرب الخمر وغيرهما من الكبائر الظاهرة[1]، ولا صلاح للقلب ولا للجسد إلا باجتنابها والتوبة منها.

والصغائر: كشهوة المحرمات وتمنيها، وتفاوت درجات الشهوة في الكبر والصغر، بحسب تفاوت درجات المشتَهىٰ، فشهوة الكفر والشرك كفر وشهوة البدعة فسق، وشهوة الكبائر معصية، فإن تركها لله مع قدرته عليها أثيب. . . »[2].

وفي ختام هذا الموضوع أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا وأن يرزقنا قلوبًا سليمة. والله المستعان.

---

(١) أكّد ابن القيم ـ أيضًا ـ على أن الكبائر الباطنة أشنع من الكبائر الظاهرة في مدارج السالكين ٣/٢٢٣.

(٢) مدارج السالكين ١/١١٣، ١١٤ـ بتصرف يسير.

مكائد الشيطان

﴿إن الشيطانَ لكم عدو فاتخذوه عدوًا﴾ [فاطر، آية ٦].

هذه الآية الكريمة تؤكد حقيقة ثابتة راسخة، وهي قيام العداوة بين آدم وذريته، وبين إبليس وذريته، فهي عداوة شديدة وقديمة، فقد حرص إبليس وأعوانه على إغوائنا بكل طريق. . . وما أكثر مداخله وطرقه، فإن له «وساوس» «وخطوات» «وهمزات» «ونزغات».

ومما يؤكد شدة عداوته أن مداخل الشيطان فيها خداع وتضليل، وتلبيس فيظهر الباطل في صورة الحق[١].

كما أن مداخله ليست على منوال واحد، بل هي أساليب متباينة ومتناقضة يجمعها الانحراف عن الصراط السويّ.

قال مخلد بن الحسين ـ رحمه الله ـ: «ما ندب الله العباد إلى شيء إلا اعترض فيه إبليس بأمرين ما يبالي بأيهما ظفر، إما غلوًّا فيه، وإما تقصيراً عنه»[٢] ولذا سنتحدث عن هذا الموضوع من خلال ما يلي:

أ ـ أهمية الموضوع:

لما شرع ابن القيم ـ رحمه الله ـ في الحديث عن مصايد الشيطان، قال:

«إن المتأخرين من أرباب السلوك لم يعتنوا به اعتناءهم بذكر النفس وعيوبها وآفاتها، فإنهم توسعوا في ذلك، وقصروا في هذا الباب.

---

(١) انظر تلبيس إبليس ص٤٨، وإغاثة اللهفان ١/١٧٦، ١٨٠.

(٢) حلية الأولياء ٨/٢٦٦.

ومن تأمل القرآن والسنة وجد اعتناءهما بذكر الشيطان ومحاربته أكثر من ذكر النفس، فإن النفس المذمومة ذكرت في قوله تعالى: ﴿**إن النفس لأمارة بالسوء**﴾ [يوسف، آية ٥٣]، واللوامة في قوله تعالى: ﴿**ولا أقسم بالنفس اللوامة**﴾ [القيامة، آية ٢]، وذكرت النفس المذمومة في قوله تعالىٰ: ﴿**ونهىٰ النفس عن الهوىٰ**﴾ [النازعات، آية ٤٠]، فأما الشيطان فذكر في عدة مواضع، وأفردت له سورة تامة، فتحذير الرب تعالى لعباده منه جاء أكثر من تحذيره من النفس، وهذا الذي لا ينبغي غيره، فإن شر النفس وفسادها ينشأ من وسوسته، فهي مركبه وموضع شره، ومحل طاعته، وقد أمر الله سبحانه بالاستعاذة منه عند قراءة القرآن وغير ذلك، وهذا لشدة الحاجة إلى التعوذ منه، ولم يأمر بالاستعاذة من النفس في موضع واحد، وإنما جاءت الاستعاذة من شرها في خطبة الحاجة في قوله: «**ونعوذ بالله من شرور أنفسنا**».»[1].

ب ـ **مداخل الشيطان:**

لاشك أن مداخل الشيطان كثيرة ومتعددة، فيوسوس على كل صنف من الناس بما يناسب حاله وطبعه، فتارة يأمر بالسوء والفحشاء، كما قال سبحانه: ﴿**إنما يأمركم بالسوء والفحشاءِ وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون**﴾ [البقرة، آية ١٦٩]، وتارة يخوّف بالفقر والأعداء، قال تعالى: ﴿**الشيطان يعدكم الفقر**﴾ [البقرة، آية ٢٦٨]، ﴿**إنما ذلكم الشيطانُ يخوّف أولياءَه فلا تخافوهم وخافونِ إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران، آية ١٧٥].

وتارة يشغل النفوس بالأماني الباطلة والوعود الكاذبة ﴿**يَعِدُهم ويمنّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غروراً**﴾ [النساء، آية ١٢٠].

فعلىٰ الحازم أن يكون بصيراً بتلك المداخل حتى لا يستدرجه الشيطان إلى الغواية من حيث لا يشعر.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «إن من فقه العبد أن يعلم نزغات

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٤٥.

الشيطان، متىٰ تأتيه؟ ومن أين تأتيه»[١].

وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ: «لايزال العبد بخير ما علم الذي يفسد عليه عمله»[٢].

ونشير إلى أعظم مداخل الشيطان، وهو الجهل، فعن طريق الجهل تسلّط الشيطان على كثير من الناس فحرّموا ما أحل الله تعالىٰ، وأحلوا ما حّرم الله تعالىٰ، وتعبّدوا الله بالبدع والمحدثات.

قال أبو الفرج ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن الباب الأعظم الذي يدخل منه إبليس على الناس هو الجهل، فهو يدخل منه على الجهال بأمان، وأما العالم فلا يدخل عليه إلا مسارقة، وقد لبس إبليس على كثير من المتعبدين بقلة علمهم؛ لأن جمهورهم يشتغل بالتعبد، ولم يحكم العلم»[٣].

إن التزود من العلم النافع سبب رئيس في دفع مكائد الشيطان، وكلما ازداد العبد علمًا نافعًا ـ مما يورث خشية الله وتقواه ـ كلما ازداد سلامة من نزغات الشيطان ومصايده.

فأنت ترى ـ مثلاً ـ أن أدنىٰ عقبات الشيطان أن يشغل العباد بالأعمال المرجوحة والمفضولة عن الأعمال الراجحة والفاضلة.

وعلاج ذلك بالفقه في الأعمال، والعلم بمراتب الطاعات عند الله تعالى، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين مفضولها وفاضلها، فإن في الطاعات سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤسًا[٤].

---

(١) الرعاية للمحاسبي ص١٦٠.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٥٢٨، وانظر الزهد للإمام أحمد ص٢٧٨.

(٣) تلبيس إبليس ص١٤٩، وانظر ص٩٠، ٣٦٠، ٤٢٧.

(٤) انظر مدارج السالكين ١/٢٢٥.

جـ - مكائد خفية :

للشيطان - أعاذنا الله منه - نزغات خفية، ومكائد دقيقة، فليبس الأمور، ويظهر الباطل في صورة الحق.

يقول ابن القيم: «من مكايده أنه يسحر العقل دائماً حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من يشاء الله، فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه أنفع الأشياء، وينفره من الفعل الذي هو أنفع الأشياء له، حتى يخيّل له أن يضره، فلا إله إلا الله كم فتن بهذا السحر من إنسان، وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان؟ وكم روّج من الزغل على العارفين؟ فهو الذي سحر العقول حتى ألقىٰ أربابها في الأهواء المختلفة والآراء المتشعبة، وسلك بهم من سبل الضلال كل مسلك.

فأبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قالب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معهم، والإعراض عما جاء به الرسول في قالب التقليد، والاكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والإدهان في دين الله في قالب العقل المعيشي الذي يندرج به العبد بين الناس»[1].

وها نحن نورد بعضًا من تلك المكائد الخفية على النحو الآتي:

١ - الغيبة :

من المعلوم أن الغيبة من المحرمات الظاهرة، قال تعالىٰ: ﴿**ولا يغتبْ بعضُكم بعضًا أيحبّ أحدُكم أن يأكلَ لحم أخيه ميتًا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم**﴾ [الحجرات، آية ١٢].

والغيبة: ذكرك أخاك بما يكره.

ومع ثبوت حرمتها بالأدلة الصحيحة الصريحة، إلا أن الشيطان قد أوقع

---

(١) إغاثة اللهفان ١/١٧٦، ١٧٧= باختصار.

الكثير في تلك الغيبة في قوالب وصور مستحسنة، وقد نبّه أهل العلم لهذا المزلق، فأذكر كلامهم نظرًا لكثرة الوقوع في الغيبة، وبتلك الصور المستحسنة.

- **يقول المحاسبي:**

«إن علم إبليس أنك حذر خائف في كثير من أحوالك، لم يبدأ صاحِبَك بالتزين له بالغيبة والكذب، إن علم أنك من ذلك نافر، وله مجانب، ولكن يدعكما، حتى إذا ذكرتما الله عز وجل، واستأنستْ قلوبكما، زين لكما فضول الكلام، والراحة إلى الدنيا، فإذا خُضتما في ذلك زين لكما الغيبة.

فإن كنتما من الخائفين في كثير من أموركما أجرىٰ الغيبة من قبل الغضب لله عزّ وجل، أو التعجب، أو الإنكار، أو التوجع لمن تغتابانه.

وإن كنتما لا تقومان في الخوف ذلك المقام، أجرىٰ بينكما الغيبة من قِبل الغضب والغيظ والمكافأة لمن ذكركما، أو ذكر أحدكما، والآخر راضٍ بذلك»[1].

- **ويقول ابن الجوزي:**

«ومن تلبيس إبليس على أصحاب الحديث قدح بعضهم في بعض طلبًا للتشفي، ويخرجون ذلك مخرج الجرح والتعديل الذي استعمله قدماء هذه الأمة للذبّ عن الشرع والله أعلم بالمقاصد...

وأما غيبة العلماء فمنبعها من خدعة النفس على إبداء النصيحة وتأويل ما لا يصح من الخبر، ولو صح ما كان عونًا على الغيبة، وهو قوله: «أترعون عن ذكر الفاجر؟ أذكروه بما فيه ليحذره الناس»[2]، ولو كان الخبر محفوظًا صحيحًا لم يكن فيه إبداء شناعة على أخيك المسلم من غير أن تسأل عنه...

وأما منبع الغيبة من الرؤساء والأساتذة فمن طريق إبداء الرحمة والشفقة

---

(١) الرعاية ص٣١٥.

(٢) أخرجه العقيلي في «الضعفاء» (٧٢)، وابن حبان ١/٢١٥، وغيرهما وهو موضوع انظر «الضعيفة» للألباني ح (٥٨٣).

حتى يقول: مسكين فلان ابتلي بكذا، وامتحن بكذا، نعوذ بالله من الخذلان، فيتصنع بإبداء الرحمة والشفقة على أخيه، ثم يتصنع بالدعاء له عند إخوانه»[٢].

ويقول في موضع آخر:

«وكم من ساكت عن غيبة المسلمين إذا اغتيبوا عنده فرح قلبه، وهو آثم بذلك من ثلاثة أوجه، **أحدها**: الفرح فإنه حصل بوجود هذه المعصية من المغتاب، **والثاني**: لسروره بثلب المسلمين، **والثالث**: أنه لا ينكر»[٢].

- ويقول ابن تيمية - رحمه الله -:

«ومنهم من يخرج الغيبة في قوالب شتىٰ، تارة في قالب ديانة وصلاح، فيقول: ليس لي عادة أن أذكر أحداً إلا بخير، ولا أحبّ الغيبة ولا الكذب، وإنما أخبركم بأحواله، ويقول: والله إنه مسكين، أو رجل جيّد، ولكن فيه كيت وكيت، وربما يقول دعونا منه، الله يغفر لنا وله، وإنما قصده استنقاصه وهضمًا لجنابه، ويخرجون الغيبة في قوالب صلاح وديانة، يخادعون الله بذلك، كما يخادعون مخلوقًا، وقد رأينا منهم ألوانًا كثيرة من هذا وأشباهه.

ومنهم من يحمله الحسد على الغيبة، فيجمع بين أمرين قبيحين: الغيبة والحسد، وإذا أثنى على شخص، أزال ذلك عنه بما استطاع من تنقصه في قالب دين وصلاح، أو في قالب حسد وفجور وقدح ليسقط ذلك عنه.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب تمسخر ولعب، ليضحك غيره باستهزائه ومحاكاته واستصغار المستهزأ به.

ومنهم من يخرج الغيبة في قالب التعجب، فيقول تعجبت من فلان كيف لا يفعل كيت وكيت! ومن فلان كيف وقع منه كيت، وكيف فعل كيت وكيت، فيخرج اسمه في معرض تعجبه.

---

(١) تلبيس إبليس ص١٢٨، ١٢٩= باختصار.

(٢) المرجع السابق ص١٤٢.

ومنهم من يخرج الاغتمام، فيقول مسكين فلان، غمني ما جرىٰ له، وما تم له فيظن من يسمعه أنه يغتم له ويتأسف وقلبه منطو على التشفي له، ولو قدر لزاد على مابه، وربما يذكره عند أعدائه ليشتفوا به، وهذا وغيره من أعظم أمراض القلوب والمخادعات لله ولخلقه»[١].

أخي القاريء: تأمّل في أقوال هؤلاء العلماء، ترىٰ أن ما ذكروه إنما هو واقع مشاهد ومألوف في حياتنا المعاصرة، والله المستعان.

ولقد حرص السلف الصالح على الابتعاد عن الغيبة، فكان عبد الله بن وهب ـ رحمه الله ـ (تـ١٩٧هـ) يقول: «نذرت أنّي كلما اغتبت إنسانًا أن أصوم يومًا، فأجهدني، فكنت اغتاب وأصوم، فنويت أني كلما اغتبت إنسانًا أن أتصدق بدرهم، فمن حبّ الدراهم تركت الغيبة»[٢].

قال الذهبي ـ معلقًا ـ: «هكذا والله كان العلماء، وهذا هو ثمرة العلم النافع»[٣].

«وكان ميمون بن سياه لا يغتاب، ولا يدع أحدًا يغتاب عنده، ينهاه فإن انتهىٰ وإلا قام عنه»[٤].

٢ ـ **من خفايا مكائد الشيطان**: أن يزيّن للعبد ذم نفسه بين الناس، وهو يريد بذلك المدح والثناء الجميل.

قال ابن رجب: «وههنا نكتة دقيقة، وهي أن الإنسان قد يذمّ نفسه بين الناس، يريد بذلك أن يرىٰ الناس أنه متواضع عند نفسه، فيرتفع بذلك عندهم ويمدحونه به، وهذا من دقائق أبواب الرياء، وقد نبه عليه السلف الصالح.

قال مطرف بن عبد الله بن الشِّخِّير: كفى بالنفس إطراءً أن تذمها على

---

(١) مجموع الفتاوى ٢٨/٢٣٧، ٢٣٨= باختصار.

(٢، ٣) سير أعلام النبلاء ٩/٢٢٨.

(٤) حلية الأولياء ٣/١٠٧.

الملأ، كأنك تريد بذمها زينتها، وذلك عند الله سفه»[١].

«**وقال عبد الله بن المبارك**: كن محبًّا للخمول كراهية الشهرة، ولا تظهر من نفسك أنك تحبّ الخمول فترفع نفسك»[٢].

«**وقال بعض السلف**: لولا أن تكون مدحة لذممت لكم نفسي»[٣].

٣ - ومن مكايده أن يزيّن لبعض الناس ذمّ الدنيا من أجل غرض دنيوي، كأن يذم الدنيا لعدم حصول مآربهم منها، أو يزهد في الدنيا طلبًا للراحة لا طلبًا للدار الآخرة.

قد نبه ابن تيمية على هذا المكيدة، فكان مما قاله:

«لا تنظر إلى كثرة ذم الناس الدنيا ذمًّا غير ديني، فإن أكثر العامة إنما يذمونها لعدم حصول أغراضهم منها، فإن لم تصف لأحد قط، ولو نال منها ما عساه أن ينال...

فأكثر ذم الناس للدنيا ليس من جهة شغلها لهم عن الآخرة، وإنما هو من جهة ما يلحقهم من الضرر فيها، وهي مذمومة من ذلك، وأعلى وجوه الذم هو ما شغل عن الآخرة - إلى أن قال -.

من زهد زهد الكسل والبطالة والراحة، لا لطلب الدار الآخرة بالعمل الصالح والعلم النافع، فإن العبد إذا كان زاهدًا بطالاً فسد أعظم فساد، فهؤلاء لا يعمرون الدنيا ولا الآخرة»[٤].

* * *

وأخيراً: إن الواجب علينا أن ندرك مكايد الشيطان وأحابيله، وأن نتفقه في

---

(١) شرح حديث ماذئبان جائعان ص٤٦.

(٢) صفة الصفوة ٤/١٣٧.

(٣) الزهد للإمام أحمد ص٣١٢.

(٤) مجموع الفتاوى ٢٠/١٤٨-١٥٠- باختصار.

دين الله تعالىٰ، فنحرص على العلم النافع والعمل الصالح، وأن نضرع إلى الله تعالىٰ بأن يعيذنا من همزاته ونزغاته ﴿**وقل ربِّ أعوذ بك من همزاتِ الشياطين. وأعوذ بك ربِّ أن يحضرون**﴾ [المؤمنون، آية ٩٧، ٩٨].

وأن نسعىٰ بكل عزم وصدق إلى تحقيق التوحيد، فقد علم الشيطان أن الله تعالى لا يسلطه على أهل التوحيد والإخلاص: ﴿قال فبعزتك لأغوينهم أجمعين. إلا عبادك منهم المخلصين﴾ [ص، آية ٨٢، ٨٣].

وأن نجاهد أنفسنا في سبيل الله تعالى، كما قال سبحانه:

﴿**والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلَنا وإن الله لمع المحسنين**﴾ [العنكبوت، آية ٦٩].

وأن نبادر إلى الجد في طاعة الله تعالى، «فإن الجد في الطاعة وسيلة إلى إكمالها واستمرارها»(١).

قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ:

«إذا نظر إليك الشيطان فرآك مداومًا على طاعة الله فبغاك وبغاك، فرآك مداومًا ملّك ورفضك، وإذا كنت مرة هكذا، ومرة هكذا طمع فيك»(٢).

---

(١) شجرة المعارف والأحوال للعز بن عبد السلام ص١٠١.

(٢) الزهد لابن المبارك ص٧.

٥ ـ الإخـلاص والعُجـب

أ ـ عظم منزلة الإخلاص :

إن الإخلاص هو حقيقة الدين، ولبّ العبودية، ومفتاح دعوة الرسل عليهم السلام، والشرط في قبول العمل.

قال تعالى: ﴿**وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء**﴾ [البينة، آية ٥].

وقال سبحانه: ﴿**الذي خلقَ الموتَ والحياةَ ليبلُوكم أيُّكم أحسن عملاً**﴾ [الملك، آية ٢]. والمقصود بالإخلاص: إفراد الله تعالىٰ بالقصد في الطاعة، وتصفيته عن ملاحظة المخلوقين، وتنقيته من كل شوب.

يقول ابن تيمية ـ رحمه الله ـ :

«إذا كان العبد مخلصًا له اجتباه ربه، فيحيي قلبه، واجتذبه إليه فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله، فإنه في طلب وإرادة وحبّ مطلق، فيهوىٰ ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مرّ بعطفه[1] أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقىٰ أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا. وتارة يجتذبه الشرفُ والرئاسة، فترضية الكلمة، وتغضبه الكلمة، ويستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب.

ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له، قد صار قلبه معبدًا لربه وحده لا شريك له، بحيث يكون الله أحبّ إليه من كل سواه، ويكون ذليلاً له خاضعًا وإلا

---

(١) أي: بجانبه. انظر مختار الصحاح ص ٤٤٠.

استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلا الله. وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه»[٢].

ويقول ابن الجوزي في إحدى خواطره:

«ما أقل من يعمل لله تعالى خالصًا؛ لأن أكثر الناس يحبون ظهور عباداتهم...

واعلم أن ترك النظر إلى الخلق، ومحو الجاه من قلوبهم بالتعمل وإخلاص القصد وستر الحال، هو الذي رفع من رفع.

فقد كان أحمد بن حنبل يمشي حافيًا في وقت، ويحمل نعليه في يديه، ويخرج للّقاط. وبشر يمشي حافيًا على الدوام وحده، ومعروف [الكرخي] يلتقط النوى.

واليوم صارت الرياسات من كل جانب، وما تتمكن الرياسات حتى يتمكن من القلب الغفلة، ورؤية الخلق، ونسيان الحق، فحينئذ تطلب الرياسة على أهل الدنيا.

ولقد رأيت من الناس عجبًا حتى من يتزيا بالعلم، إن رآني أمشي وحدي أنكر عليّ وإن رآني أزور فقيرًا عظّم ذلك، فقلت: فواعجبًا هذه كانت طريق الرسول ﷺ والصحابة رضي الله عنهم، فصارت أحوال الخلق نواميس لإقامة الجاه لا جرم والله سقطتم من عين الحق، فأسقطكم من عين الخلق.

فالتفتوا إخواني إلى إصلاح النيات، وترك التزين للخلق، ولتكن عمدتكم الاستقامة مع الحق، فبذلك صعد السلف وسعدوا»[٢].

ب ـ مع أخبار المخلصين:

إن القاريء لتراجم السلف الصالح، يرىٰ ما كان عليه القوم من تمام الإخلاص، وتحقيق التجرد لله تعالى وحده في فعل الصالحات، وإليك جملة من

---

(١) مجموع الفتاوى ١٠/٢١٦، وانظر: ١٠/٢٦١.

(٢) صيد الخاطر ص٢٢٦، ٢٢٧= باختصار، وانظر ص٢٤٨، ٢٥٠.

أحوالهم وأقوالهم في مقام الإخلاص، لعلها أن تكون سببًا في التأسي بهم.

«**وقال سفيان بن عيينة**: ما أخلص عبد لله أربعين يومًا إلا أنبت الله الحكمة في قلبه نباتًا، وأنطق لسانه بها، وبصره عيوب الدنيا داءها ودواءها»(١).

«**وقال الربيع بن خثيم**: كل ما لا يراد به وجه الله يضمحل»(٢).

«**ووصىٰ الإمام أحمد ابنه قائلاً**: يابني انو الخير فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير»(٣).

«**وقال عون بن عبد الله**: إذا أعطيت المسكين شيئًا، فقال: بارك الله فيك. فقل أنت: بارك الله فيك، حتى تخلص لك صدقتك»(٤).

«**وقال يحيى بن أبي كثير**: تعلموا النية، فإنها أبلغ من العمل»(٥).

«**وكان محمد بن يوسف الأصبهاني** لا يشتري زاده من خباز واحد، وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني»(٦).

«**وقال أويس القرني** ـ رحمه الله ـ: وإذا قمت فادع الله أن يصلح لك قلبك ونيتك، فلن تعالج شيئًا أشد عليك منهما»(٧).

«**ومرّ حمزة الزيات برجل** فاستسقىٰ، ثم قال: أنت ممن يحضرنا في القراءة، قال: نعم. قال حمزة: لاحاجة لي في مائك»(٨).

«**وقال عبد الله بن إدريس لرجل**: سل عن سعر الأشنان، ثم ردّه وقال:

---

(١) حلية الأولياء ٧/٢٨٧.

(٢) سير أعلام النبلاء ٤/٢٥٩، وورد أيضًا عن محمد بن الحنفية. انظر حلية الأولياء ٣/١٧٦.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/١٢١.

(٤) حلية الأولياء ٤/٢٥٣.

(٥) حلية الأولياء ٣/٧٠.

(٦) حلية الأولياء ٨/١٣١.

(٧) صفة الصفوة ٣/٥٥.

(٨) صفة الصفوة ٣/١٥٦.

لا تسأل، فإنك تكتب عني الحديث، وأنا أكره أن أسأل من يسمع عني الحديث»[١].

«**وسئل حمدون القصار**: مابال كلام السلف أنفع من كلامنا؟ قال: لأنهم تكلموا لعزّ الإسلام، ونجاة النفوس، ورضا الرحمن، ونحن نتكلم لعز النفوس، وطلب الدنيا، ورضا الخلق»[٢].

«**ودخل عبد الله بن محيريز** ـ رحمه الله ـ حانوتًا وهو يريد أن يشتري ثوبًا، فقال رجل لصاحب الحانوت: هذا ابن محيريز فأحسن بيعه، فغضب ابن محيريز وخرج، وقال إنما نشتري بأموالنا، لسنا نشتري بديننا»[٣].

«**وقال زبيد**: أحب أن يكون لي في كل شيء نية، حتى في طعامي وشرابي»[٤].

جـ ـ إخفاء الطاعات عند السلف:

كان الصالحون يسترون عباداتهم، ويخفون طاعاتهم خوفًا من دواعي الرياء والسمعة ونحوه مما قد يخدش الإخلاص أو ينقصه[٥].

وهاك طرفًا من سيرهم وأخبارهم في هذا المقام.

«**قال الزبير بن العوام ـ رضي الله عنه ـ**: أيكم استطاع أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل»[٦].

«**وقال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ**: إذا أصبحتم صيامًا فأصبحوا مدّهنين»[٧].

---

(١) صفة الصفوة ٣/١٦٧.
(٢) صفة الصفوة ٤/١٢٢.
(٣) صفة الصفوة ٤/٢٠٦.
(٤) حلية الأولياء ٥/٦١.
(٥) انظر تلبيس إبليس ص١٦٠، ١٧١، ٣٢٤.
(٦) الزهد لابن المبارك ص٣٩٢.
(٧) صفة الصفوة ١/٤١٦.

«**وقال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ**: إن كان الرجل لقد جمع القرآن وما يشعر به جاره، وإن كان الرجل لقد فقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس، وإن كان الرجل ليصلي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزور وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في سرّ فيكون علانية أبدًا»[١].

«**وقال أيضًا**: إن كان الرجل ليجلس المجلس فتجيئه عبرته فيردها، فإذا خشي أن تسبقه قام»[٢].

«**وصام داود بن أبي هند أربعين سنة لا يعلم به أهله**، وكان خرازًا يحمل معه غداه من عندهم، فيتصدق به في الطريق، ويرجع عشيًا فيفطر معهم»[٣].

«**وقالت امرأة حسان بن أبي سنان**: كان حسان يجيء فيدخل معي في فراشي، ثم يخادعني، كما تخادع المرأة صبيها، فإذا علم أني نمت، سَلَّ نفسه فخرج، ثم يقوم فيصلي[٤]».

«**وكان ناس من أهل المدينة** يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين [زين العابدين] فقدوا ذلك الذي كانوا يؤتون بالليل. . .

وكان علي بن الحسين ـ رحمه الله ـ قد وجدوا بظهره أثرًا مما كان ينقل الجُرْب بالليل إلى منازل الأرامل»[٥].

«**وكان عبد الله بن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس**، وكان ينزل الرّقة في خان، فكان شاب يختلف إليه، ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث. قال:

---

(١) الزهد لابن المبارك ص٤٥.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص٢٦٢.

(٣) حلية الأولياء ٣/٩٤.

(٤) حلية الأولياء ٣/١١٧، وانظر: ٣/١٥.

(٥) حلية الأولياء ٣/١٣٦، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/٣٩٣.

فقدم عبد الله الرقة مرة فلم ير ذلك الشاب وكان مستعجلاً، فخرج غازيًا في سبيل الله، فلما قفل من غزوته، ورجع إلى الرقة، سأل عن الشاب، فقالوا: إنه محبوس لديْن ركبه، فقال عبد الله: وكم مبلغ دينه؟ قالوا: عشرة آلاف درهم، فلم يزل يَستقصي حتى دُلّ على صاحب المال فدعا به ليلاً، ووزن له عشرة آلاف درهم، وحلّفه أن لا يخبر أحدًا ما دام عبد الله حيًّا، وقال: إذا أصبحت فأخرج الرجل من الحبس»[١].

كما كان عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ يضع اللثام على وجهه عند قتاله في سبيل الله[٢]، ولذا قال إمام أهل السنة أحمد رحمه الله: «ما رفع الله ابن المبارك إلا بخبئة كانت له»[٣].

«**وكان عبد الرحمن بن مهدي يصلي** فإذا دخل الداخل، نام على فراشه»[٤].

«**وكان عمل الربيع بن خثيم كله سرًّا**، إن كان يجيء الرجل وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه»[٥].

«**وكان أبو وائل شقيق بن سلمة** إذا صلىٰ في بيته ينشج نشيجًا، ولو جعلت له الدنيا على أن يفعله وأحد يراه ما فعله»[٦].

«**وخرج قوم في غزاة إلى كابل**، وفي الجيش صِلة بن أشيم فنزل الناس عند العتمة فقال أحدهم: لأرمقن عمله فأنظر ما يذكر من عبادته، فصلىٰ العتمة ثم اضطجع فالتمس غفلة الناس حتى قلتُ هدأت العيون، وثبَ فدخل غيضة

---

(١) صفة الصفوة ٤/١٤١، ١٤٢، وانظر سير أعلام النبلاء ٨/٣٨٦.
(٢) انظر تفصيل ذلك في: صفة الصفوة ٤/١٤٤.
(٣) صفة الصفوة ٤/١٤٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٤.
(٥) حلية الأولياء ٢/١٠٧، وانظر سير أعلام النبلاء ٤/٢٦٠.
(٦) حلية الأولياء ٤/١٠١، وانظر صفة الصفوة ٣/٢٩.

قريبًا منه، ودخلت في أثره فتوضأ ثم قام يصلي. . . ـ إلى آخر القصة ـ»[١].

«**وقال موسىٰ بن بشار**: صحبت محمد بن واسع من مكة إلى البصرة فكان يصلي الليل أجمع في المحمل جالسًا يوميء برأسه إيماء، وكان يأمر الحادي يكون خلفه ويرفع صوته حتى لا يُفطن له»[٢].

«**وقال محمد بن واسع**: إن كان الرجل ليبكي عشرين سنة وامرأته معه لا تعلم به»[٣].

«**وقال محمد بن القاسم** ـ خادم محمد بن أسلم الطوسي ـ: كان [محمد بن أسلم رحمه الله] يدخل بيتًا، ويغلق بابه، ويُدخل معه كوزًا من ماء، فلم أدر ما يصنع؟ حتى سمعت ابنًا له صغيرًا يحكي بكاءه، فنهته أمه، فقلت لها: ماهذا البكاء؟ فقالت: إن أبا الحسن [محمد بن أسلم] يدخل هذا البيت فيقرأ القرآن ويبكي، فيسمعه الصبي فيحكيه وكان إذا أراد أن يخرج غسل وجهه، واكتحل، ولا يُرىٰ عليه أثر البكاء»[٤].

«**وكان عبدالرحمن بن أبي ليلى يصلي**، فإذا دخل الداخل نام على فراشه»[٥].

«**وقال الخريبي**: كانوا يستحبون أن يكون للرجل خبيئة من عمل صالح لا تعلم به زوجته ولا غيرها»[٦].

«**وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ**: لوددت أن الخلق يتعلمون مني، ولا ينسب إليّ منه شيء»[٧].

---

(١) صفة الصفوة ٣/٢١٧.

(٢) حلية الأولياء ٢/٣٤٦، وانظر صفة الصفوة ٣/٢٦٦.

(٣) حلية الأولياء ٢/٣٤٧، وانظر صفة الصفوة ٣/٢٦٩.

(٤) صفة الصفوة ٤/١٢٦.

(٥) الزهد للإمام أحمد ص٣٦٣، وانظر حلية الأولياء ٤/٣٥١.

(٦) سير أعلام النبلاء ٩/٣٤٩.

(٧) صفة الصفوة ٢/٢٥١.

«**وقال أيوب السختياني ـ رحمه الله ـ**: والله ما صدق عبد إلا سره أن لا يشعر بمكانه»[١].

«**وغلب أيوب البكاء يومًا فقال**: الشيخ إذا كبر مجّ وغلبه فوه، فوضع يده على فيه، وقال: الزكمة ربما عرضت»[٢].

وبعد هذا العرض نقول: لمّا حرص أولئك الأولياء على الإخلاص التام، وإخفاء الطاعات في سبيل تحقيق كمال التجرد لله وحده لا شريك له، فإن الله تعالى جازاهم في العاجلة بالقبول والثناء الحسن، وجعل الله لهم لسان صدق؛ لأنهم سعوا إلى تحقيق مرضاة الله، فرضي الله عنهم، وأرضىٰ عنهم الناس[٣]، وأما غير المخلصين من المرائين وأهل العُجْب وأصحاب «العقل المعيشي»[٤] فما نالوا إلا ذم الناس وسخطهم عقوبة لهم على نقيض قصدهم، والوعيد الشديد لهم في الآخرة.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فمن خلصت نيته في الحق، ولو على نفسه، كفاه الله ما بينه وبين الناس، ومن تزين بما ليس فيه شانه الله»[٥].

العجب:

العجب إحدىٰ الآفات التي تفسد الأعمال، وتهلك العباد، والعجب أحد العوارض التي تعرض للعاملين أثناء سيرهم إلى الله تعالىٰ.

إن العجب داء ينافي الإخلاص ويضاده، ويجافي الذلَّ والافتقار لله تعالى،

---

(١)، (٢) حلية الأولياء ٣/٦، ٧.

(٣) اعلم ـ رحمك الله ـ أن أولئك الصالحين قد جعلوا الإخلاص غاية ومقصدًا، فلم يتوسلوا به إلى تحقيق مثل تلك الأمور، فمن أخلص لله تعالى ليصير له قبول وثناء حسن فهو لم يرد الله تعالىٰ، بل جعل الله وسيلة له. انظر تفصيل ذلك في: درء تعارض العقل والنقل ٦/٦٦، ٦٧، وشجرة المعارف والأحوال ص٤٧.

(٤) انظر كتاب الروح لابن القيم ص٤٣٣، وإغاثة اللهفان ١/١٧٧.

(٥) انظر شرح ابن القيم لهذه العبارة في إعلام الموقعين ٣/١٨٠.

فهو سوء أدب مع الله جل جلاله، كما أن العجب يجانب محاسبة النفس، ويعمى عن معرفة أدواء النفس وعيوبها، ومع كل ذلك فالحديث عن تلك الآفة قليل، مع شدة خطرها، وعظيم ضررها، وكثرة انتشارها ـ نسأل الله العافية ـ.

ولذا سنتحدث عن هذا المرض من خلال ما يلي:

أ ـ معنى العجب وخطره:

العجب ـ في اللغة ـ«الزُّهُوُّ، ورجل معجب: مزهوّ بما يكون منه حسنًا أو قبيحًا»[١] والمراد به هاهنا: رؤية العبادة بعين الفخر واستعظامها من العبد، واستكثارها.

«**قال عبد الله بن المبارك ـ رحمه الله ـ**: العجب أن ترىٰ أن عندك شيئًا ليس عند غيرك»[٢].

قال المحاسبي: «العجب بالدين: حمد النفس على ما عملت أو علمت، ونسيان النعم من الله عزّ وجل عليك بذلك، فحمْد النفس ونسيان النعم هو العجب بالدين»[٣].

وقال أبو الوفاء ابن عقيل ـ في بيان العجب ـ:

«إنما الإعجاب استكثار ما يأتي به من طاعة الله عزّ وجلّ، ورؤية النفس بعين الافتخار، وعلامة ذلك اقتضاء الله عز وجل بما آتى الأولياء، وانتظار الكرامة وإجابة الدعوة... ـ إلى أن قال ـ إن العُجب يدخل من إثبات نفسك في العمل ونسيان ألطاف الحقّ، ومن إغفال نعمه التي لا تحصىٰ»[٤].

---

(١) لسان العرب ١/٥٨٢.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٧.

(٣) الرعاية لحقوق الله ص٣٣٩.

(٤) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/١٤٩، ١٥٠.

وقال أبو حامد الغزالي ـ في حقيقة العجب ـ:

«العجب هو استعظام النعمة، والركون إليها مع نسيان إضافتها إلى المنعم»[١].

وقال القرافي:

«العجب هو رؤية العبادة واستعظامها من العبد»[٢].

ولما كان معنىٰ العجب قريبًا من معنىٰ الرياء والسمعة والكبر، فإننا نورد بعض الفروق بينها كما يلي:

يقول ابن تيمية: «والعجب قرين الرياء، لكن الرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿**إياك نعبد**﴾ والمعجب لا يحقق قوله: ﴿**إياك نستعين**﴾، فمن حقق قوله: ﴿**إياك نعبد**﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿**إياك نستعين**﴾ خرج عن الإعجاب»[٣].

وأما الفرق بين العجب وبين التسميع، فإن العجب إنما يكون بالقلب، والتسميع يكون باللسان[٤]. إضافة إلى أن التسميع من باب الإشراك بالخلق؛ لإن التسميع هو بمعنىٰ الرياء، لكن التسميع يتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر[٥]، وأما العجب فمن باب الإشراك بالنفس ـ كما سبق ـ.

وأما الفرق بين الكبر وبين العجب، فإن العجب أن يعجب بعمله، فيحمد نفسه عليه، وينسىٰ مِنّة ربه بذلك، ولا يتكبر على أحد، فلا يغمط الناس أو يزدريهم، لكن إذا أخرجه العجب إلى أن يرىٰ أنه خير من غيره، فيحقره

---

(١) الإحياء ٣/٣٧١.

(٢) الفروق ٤/٢٢٧.

(٣) مجموع الفتاوىٰ لابن تيمية ١٠/٢٧٧ـ بتصرف يسير.

(٤) انظر الفروق ٤/٢٢٨.

(٥) انظر فتح الباري ١١/٣٣٦.

ويزدريه، فيكون حينئذ متكبراً معجبًا[١] [٢].

وبعض أهل العلم يسمي من تكبّر معجبًا؛ لأن أول بُدُوّ الكبر العجب، فمن العجب يكون أكثر الكبر، فمنه سمِّي بالكبر، ولا يكاد المعجب أن ينجو من الكبر[٣].

أما عن خطره وعظم آفاته وأضراره، فقد تحدّث العلماء عن ذلك، فنورد شيئًا من كلامهم في هذا المقام:

- **قال المحاسبي**: «يجمع العجب خصالاً شتىٰ: يعمى عليه كثير من ذنوبه، وينسىٰ مما لم يعم عليه منها أكثرها، وما ذكر منها كان له مستصغرًا، وتعمىٰ عليه أخطاؤه، وقوله بغير الحق، ويخرجه ذلك إلى الكبر والتعظيم على العباد، ويغتر بالله عز وجل ويُدِلّ عليه بعلمه وعمله، حتى كأن له منّة على ربه عز وجل.

فحينئذ ينقطع عن الله عز وجل عصمته، ويكِلهُ إلى نفسه، فيرىٰ أنه من المحسنين وهو عند الله من الظالمين الفاسقين.

ألا ترىٰ إلى ما يروىٰ عن عائشة رضي الله عنها أنه قيل لها: متى يكون الرجل مسيئًا؟ قالت: إذا ظنَّ أنه محسن».

وصدقت رضي الله عنها، إنما يرىٰ أنه محسن إذا أعجب بعمله»[٤].

- **وقال الغزالي**: «اعلم أن آفات العجب كثيرة، فإن العجب يدعو إلى الكبر، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة التي لا تخفىٰ، والعجب يدعو إلى نسيان الذنوب وإهمالها، وأما العبادات فإنه يستعظمها ويتبجح بها، ويمنّ على

---

(١) انظر الرعاية للمحاسبي ص٣٩٥.

(٢) وقال الماوردي: «الكبر يكون بالمنزلة، والعجب يكون بالفضيلة...» انظر أدب الدنيا والدين ص٢٣١.

(٣) انظر الرعاية للمحاسبي ص٣٧١.

(٤) الرعاية ص٣٣٧.

الله بفعلها، وينسى نعمة الله عليه بالتوفيق والتمكين منها، والمعجب يغتر بنفسه وبرأيه ويأمن مكر الله وعذابه، ويظنّ أنه عند الله بمكان . . . ويخرجه العجب إلى أن يثني على نفسه ويحمدها ويزكيها . . . »[١].

لقد جاء ذم العجب في الكتاب والسنة وكلام السلف.

قال الله تعالى: ﴿**ويوم حُنينٍ إذ أعجبتكم كثرتُكم فلم تُغْنِ عنكم شيئاً**﴾ [التوبة، آية ٢٥].

وقال ﷺ: «**بينما رجل يمشي في حُلّة تعجبه نفسهُ، مُرَجِّل جمّته، إذ خَسَفَ الله به فهو يتجلجلُ فيها إلى يوم القيامة**»[٢].

وقال عليه الصلاة والسلام: «**ثلاث مهلكات: شحٌّ مطاع، وهوىً متبع، وإعجابُ المرء بنفسه**»[٣].

وقال ﷺ: «**لو لم تكونوا تذنبون، خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب**»[٤].

«**وقال ابن مسعود** ـ رضي الله عنه ـ: «الهلاك في اثنين: القنوط والعجب»[٥].

قال المحاسبي ـ معلقًا على مقالة ابن مسعود ـ: «وصدق رحمه الله، فإن الإنسان إذا أعجب لم يفطن لذنوبه، وما فطن له من ذنوبه استصغره، وما لم يفطن له لم ير أنه ينبغي أن يتوب منه، وما استصغره لم يفزعه فيقلع عنه، فيقيم على ذنوبه فيهلك»[٦].

---

(١) الإحياء ٣/ ٣٧٠ـ باختصار.

(٢) أخرجه البخاري. ك اللباس. ح(٥٧٨٩)، ومسلم. ك اللباس ح (٢٠٨٨).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٥٨٤)، والبيهقي في شعب الإيمان ٢/ ٣٨٢، وغيرهما وحسّنه الألباني في «الصحيحة» ح(١٨٠٢).

(٤) أخرجه العقيلي (١٧١)، وابن عدي (١/ ١٦٤) وغيرهما، وقال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٦٩) إسناده جيد، وحسنه الألباني في الصحيحة، ح(٦٥٨).

(٥، ٦) الرعاية ص٣٣٦.

«**وعن حذيفة بن اليمان** ـ رضي الله عنه ـ قال: بحسب المرء من العلم أن يخشىٰ الله، وبحسبه من الجهل أن يعجب بعلمه»(١).

«**وقال مسروق** ـ رحمه الله ـ: بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل، وبحسبه من الجهل أن يعجب بعلمه»(٢).

«**وقال مطرِّف بن عبد الله بن الشخير** ـ رحمه الله ـ: لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا أحبّ إلى من أن أبيت قائمًا فأصبح معجبًا»(٣).

قال الذهبي ـ معلقًا على عبارة مطرف ـ: «لا أفلح ـ والله ـ من زكّى نفسه أو أعجبته»(٤).

«**وقال الفضيل بن عياض** ـ رحمه الله ـ: آفة القراء العجب»(٥).

«**وقال محمد بن واسع عن بعض العبّاد**: أفسدهم العجب»(٦).

«**وقال أبو عثمان الحيري**: الخوف من الله يوصلك إلى الله، والكبر والعجب في نفسك يقطعك عن الله»(٧).

«**وقال ابن المبارك** ـ رحمه الله ـ: لا أعلم في المصلين شيئًا شرًّا من العجب»(٨).

قال القرافي: «وسر تحريم العجب أنه سوء أدب على الله تعالىٰ، فإن العبد لا ينبغي له أن يستعظم ما يتقرب به إلى سيده، بل يستصغره بالنسبة إلى عظمة سيده، لا سيما عظمة الله تعالىٰ، ولذلك قال الله تعالىٰ: ﴿**وما قدروا الله حق قدره**﴾ [الزمر، آية ٦٧] أي ما عظموه حق تعظيمه، فمن أعجب بنفسه وعبادته فقد

---

(١) الحجة في بيان المحجة لقوام السنة الأصفهاني ٢/٥٣٤.

(٢) الزهد للإمام أحمد ص٣٤٩، وانظر صفة الصفوة ٣/٢٥، وسير أعلام النبلاء ٤/٦٨.

(٣) الزهد لابن المبارك ص ١٥١، وانظر حلية الأولياء ٢/٢٠٠، وسير أعلام النبلاء ٤/١٩٠.

(٤) سير أعلام النبلاء ٤/١٩٠.

(٥) حلية الأولياء ٨/٤٤٢.

(٦) صفة الصفوة ٣/٢٦٨.

(٧) صفة الصفوة ٤/١٠٥، وانظر طبقات السلمي ص١٧٢.

(٨) سير أعلام النبلاء ٨/٤٠٧.

هلك مع ربه، وهو مطلع عليه، وعرض نفسه لمقت الله تعالى وسخطه»[١].

ب ـ **سببه وعلاجه:**

ويمكن القول ـ ابتداءً ـ أن سبب العجب أمران:

أحدهما: الجهل بحق الله تعالىٰ، وعدم تقدير الله تعالىٰ حقّ قدره، وقلة العلم بأسماء الله تعالى وصفاته، وضعف التعبد لله تعالى بهذه الأسماء والصفات.

الثاني: الغفلة عن حقيقة النفس، وقلة العلم بطبيعتها، والجهل بعيوبها وأدوائها، وإهمال محاسبة النفس ومراقبتها.

ومن ثم فإن العلاج ـ وبإيجاز ـ هو التعرّف على الله تعالىٰ، وتحقيق تعظيمه وتقديره حقّ قدره تعالى، والقيام بالعبودية له من خلال أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، فالخير كلّه بيديه، ورحمته تعالى وسعت كلَّ شيء، ﴿**وما بكم من نعمةٍ فمن الله**﴾ آية. [النحل، آية ٥٣].

والعلاج الآخر: هو معرفة النفس، والعلم بنزغاتها وشهواتها، والتعرّف على عيوبها وأدوائها، والسعي الجاد إلى استصلاحها وتقويمها.

وإليك تفصيل أقوال أهل العلم ـ في هذه المسألة ـ على النحو السابق:

«**يقول شقيق البلخي**: إذا رأى العبد نفسه في طاعة فليقل لنفسه: هذه طيبة من الله، وهو الذي منّ بها عليّ، وإذا علم ذلك كسر العجب»[٢].

«**وقال يوسف بن الحسين الرازي: يتولد الإعجاب بالعمل من نسيان رؤية المنة فيما يجري الله من الطاعات**»[٣].

«وقال الإمام الشافعي: إذا خفت على عملك العُجْب، فاذكر رضىٰ من تطلب، وفي أي نعيم ترغب، ومن أي عقاب ترهب، فمن فكرّ في ذلك صغُر عنده عمله»[٤].

---

(١) الفروق ٤/٢٢٧.
(٢) حلية الأولياء ٨/٦٩.
(٣) صفة الصفوة ٤/١٠٣، وانظر طبقات الصوفية للسلمي ص١٨٨.
(٤) سير أعلام النبلاء ١٠/٤٢.

وقـال **المحاسبي**: «أما العجب بالحق والطاعة من العمل والعلم والرأي الموافق للحقّ والصواب، فبذكر النعمة فيه أن ذلك بمنّة الله عز وجل وفضله، ولولا منته بذلك لما نال ذلك أحد أبدًا من نفسه؛ لأن النفس لو تركت لما فعلت ذلك، ولا كان منها؛ لأن محبتها في خلاف ذلك. . . »(١).

وقال أيضـًا: «لو عرفتم عظمة الله وكبرياءه وجلاله، والذي هو له أهل لاستحييتم من ذكر أعمالكم، ولو علمتم قدر أيادي الله ونعمه عليكم بشكرها، فكيف تستكثـرون أعـمالكم المشوبة بالآفات؟ وكيف يعجب بأعماله من كانت الأعمال مننـًا من الله عليه، وعليه من المنن في الدين والدنيا أكثر من أن يعد أو يحصىٰ؟»(٢).

«**وقال ابن عقيل**: لو لحظ العبد اتصال النعم، لاستقل عمله وإن كثر أن يقابل النعم شكرًا، ويدخل [العجب] من الجهل بالمطاع، فلو عرف العبد من يطيع ولمن يخدم لاستكثر لنفسه منه سبحانه ذلك، واستقلها أن تكون داخلة مع أملاك سبع سموات يسبحون الليل والنهار لا يفترون»(٣).

وقال أحمد بن قدامة ـ رحمه الله ـ: «اعلم أن الله سبحانه هو المنعم عليك بإيجادك، وإيجاد أعمالك، فلا معنى لعجب عامل بعمله، ولا عالم بعلمه، إذ كل ذلك من فضل الله تعالىٰ، وإنما الآدمي محل لفيض النعم عليه»(٤).

وقال النووي ـ رحمه الله ـ: «وطريقه في نفي الإعجاب أن يعلم أن العلم فضل من الله تعالى، ومنّة عارية، فإن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطىٰ، وكل شيء عنده بأجل مسمىٰ، فينبغي أن لا يعجب بشيء لم يخترعه، وليس مالكـًا له، ولا على يقين من دوامه»(٥).

---

(١) الرعاية ص ٣٤٨.

(٢) الوصايا ص١٠٩.

(٣) الآداب الشرعية لابن مفلح ١/ ١٥٠.

(٤) مختصر منهاج القاصدين ص٢٥٧.

(٥) المجموع ١/ ٥٥.

وقال ابن القيم: «اعلم أن العبد إذا شرع في قول أو عمل يبتغي به مرضاة الله، مطالعًا فيه منة الله عليه به، وتوفيقه له فيه، وأنه بالله لا بنفسه، ولا بمعرفته وفكره وحوله وقوته، بل هو الذي أنشأ له اللسان والقلب والعين والأذن، فالذي منّ عليه بذلك هو الذي منّ عليه بالقول والفعل، فإذا لم يغب ذلك عن ملاحظته ونظر قلبه لم يحضره العجب الذي أصله رؤية نفسه وغيبته عن شهود منة ربه وتوفيقه...»[1].

إن الإيمان بالله تعالىٰ، والتعرّف على أسماء الله عز وجل وصفاته، وتحقيق عبودية تلك الأسماء الحسنىٰ والصفات العلا، إن ذلك يورث انكسارًا وافتقارًا، فيخضع العبد وينقاد لربه، ويزول العجب والمنة بعمله.

فمن علم ـ مثلاً ـ أن الله تعالىٰ مقلب القلوب، وأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة ـ فيما يرىٰ الناس ـ وإنه لمن أهل النار... أثمر هذا الإيمان خوفًا ووجلاً، وتذللاً وخضوعًا.

وكما قال ابن بطال ـ رحمه الله ـ:

«في تغييب خاتمة العمل عن العبد حكمة بالغة وتدبير لطيف؛ لأنه لو علم وكان ناجيًا أعجب وكسل، وإن كان هالكًا ازداد عتوًّا فحجب عنه»[2].

ولما كان القدرية من أبعد الناس عن تعظيم الله تعالى، فلم يثبتوا صفة العلم التامّ الشامل لله تعالى كما يليق به سبحانه، فزعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، فالخير هو الذي أوجده العبد وفعله، ودخوله الجنة عوض عمله... أورثهم هذا الاعتقاد الفاسد عجبًا وغرورًا وسوء أدب مع الله تعالى.

---

(١) الفوائد ص١٤٤.

(٢) فتح الباري ١١/ ٣٣٠.

ولذا قال أبو سليمان الداراني ـ رحمه الله ـ:

«كيف يعجب عاقل بعمله؟ وإنما يعد العمل نعمة من الله، إنما ينبغي له أن يشكر ويتواضع، وإنما يعجب بعمله القدرية...»[١].

* * * *

وننتقل إلىٰ العلاج الآخر للعجب، وهو معرفة النفس ومحاسبتها، فنورد هذا العلاج بشيء من التفصيل:

ـ «**قال أحمد بن عاصم الأنطاكي**: أنفع الصدق أن تقر لله عز وجل بعيوب نفسك، وسُدّ سبيل العجب بمعرفة النفس»[٢].

ـ «**وقال أبو عثمان الحيري**: العجب يتولد من رؤية النفس وذكرها، ورؤية الخلق وذكرهم»[٣].

ـ **وقال المحاسبي**: «من عرف نفسه زال عنه العجب، وعظم شكر الرب عز وجل، واشتد حذره منها، والثقة والطمأنينة إلى المولىٰ عز وجل، والمقت لها، والحبّ للمتفضل المنعم.

فكم من حق لله عز وجل قد هممت بتضييعه، فأبىٰ الله عز وجل إلا أن وفقك لخلاف ما هممت به، فقد وَجب عليك المقتُ لنفسك والحذر منها، وترك إضافة العمل إليها بالحمد لها، والحبّ لربك عز وجل، والطمأنينة إليه، والثقة به، والحمد له خالصًا وحده»[٤].

ـ **وذكر أبو الوفاء ابن عقيل بعض مداخل العجب وعلاجه قائلاً**:

«ويدخل [العجب] من طرق الجهالة بكثرة الخلل والعلل، التي ينبغي أن

---

(١) حلية الأولياء ٩/٢٦٣.

(٢) صفة الصفوة ٤/٢٧٨، ٢٧٩.

(٣) طبقات الصوفية للسلمي ص١٧٢.

(٤) الرعاية ص٣٥٣، ٣٥٤= باختصار.

يكون معها على غاية الخجل، والخوف من أن يقع الطرد والرد، ويدخل أيضًا من النظر إلى الخلق بعين الاستقلال، وإدمان النظر إلى العصاة المتشردين، ولو أنه نظر إلى العمل لله عز وجل لاستقل عمله. . . »[١].

- **وقال ابن الجوزي**: «من تلمح خصال نفسه وذنوبها، علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره، في شكّ، فالذي يُحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أعمال الآخرة، والمؤمن لايزال يحتقر نفسه، وقد قيل لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ، فقال: لأن ألقىٰ الله بكلّ ذنب غير الشرك أحبّ إليّ من أن أرىٰ نفسي أهلاً لذلك»[٢].

وكان ابن الجوزي يقول أيضًا:

«نسأل الله عز وجل معرفة تعرفنا أقدارنا، حتى لا يبقىٰ للعجب بمحتقر ما عندنا أثر في قلوبنا، ونرغب إليه في معرفة لعظمته تخرس الألسن أن تنطق بالإدلال، ونرجو من فضله توفيقًا نلاحظ به آفات الأعمال التي بها نزهو حتى تثمر الملاحظة لعيوبها الخَجَلَ من وجودها، إنه قريب مجيب»[٣].

وقال ابن حزم:

«من امتحن بالعجب فليفكر في عيوبه، فإن أُعجب بفضائله، فليفتش ما فيه من الأخلاق الدنيئة، فإن خفيت عليه جملة حتى يظن أنه لا عيب فيه، فليعلم أن مصيبته إلى الأبد، وأنه أتمّ الناس نقصًا، وأعظمهم عيوبًا، وأضعفهم تمييزًا، وأول ذلك أنه ضعيف العقل، جاهل، ولا عيبَ أشد من هذين؛ لأن العاقل هو من ميّز عيوب نفسه فغالبها وسعىٰ في قمعها، والأحمق هو الذي يجهل عيوب نفسه. . .

---

(١) الآداب الشرعية ١/ ١٥٠.

(٢) صيد الخاطر ص٢٥٠، ٢٥١.

(٣) صيد الخاطر ص٢٧٥.

وإن أعجبت بآرائك، فتفكر في سقطاتك واحفظها ولا تنسها، وفي كلّ رأي قدّرته صوابًا فخرج بخلاف تقديرك، وأصاب غيرك، وأخطأت أنت. . .

وإن أعجبت بعلمك، فاعلم أنه لا خصلة لك فيه، وأنه موهبة من الله مجردة، وهبك إياها ربك تعالىٰ، فلا تقابلها بما يسخطه، فلعله ينسيك ذلك بعلة يمتحنك بها، تولّد عليك نسيان ما علمت وحفظت. . .

وإن أعجبت بمدح إخوانك لك، ففكر في ذمّ أعدائك إياك، فحينئذ ينجلي عنك العجب، فإن لم يكن لك عدو، فلا خير فيك ولا منزلة أسقط من منزلة من لا عدو له، فليست إلا منزلة من ليس لله تعالىٰ عنده نعمة يحسد عليها ـ عافانا الله ـ، فإن استحقرت عيوبك، ففكر فيها لو ظهرت إلى الناس، وتمثل اطلاعهم عليها، فحينئذ تخجل وتعرف نقصك. . . »[١].

وأخيراً: إن من كمال رحمة الله تعالى وتمام حكمته سبحانه، أن جعل النفس البشرية قابلة للخير والشر ﴿**ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها**﴾ [الشمس آية٧، ٨]، فكل ابن آدم خطّاء، وخير الخطائين التوابون، وكما في الحديث الآخر ـ وقد سبق ذكره ـ: «**ولو لم تكونوا تذنبون، خشيت عليكم أكثر من ذلك: العجب**».

«فلولا تقدير الذنب هلك ابن آدم من العجب»[٢].

ولذا يقول ابن الجوزي:

«إن النفس لو دامت لها اليقظة لوقعت فيما هو شر من فوت مافاتها، وهو العُجْب بحالها، والاحتقار لجنسها، وربما ترقت بقوة علمها وعرفانها إلى دعوىٰ: «**لي، وعندي، وأستحق**» فتركها في حومة الذنب تتخبط، فإذا وقفت على الشاطيء وقامت بحق ذلة العبودية أولىٰ لها. . . »[٣].

---

(١) الأخلاق والسير ص٦٦-٧١- باختصار.

(٢) الفوائد لابن القيم ص٦١.

(٣) صيد الخاطر ص٧٩.

ويقول ابن القيم ـ أثناء حديثه عن الحكم والأسرار في قضاء السيئات وتقدير المعاصي:

«ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد بعبده خيرًا أنساه رؤية طاعاته ورفعها من قلبه ولسانه، فإذا ابتلي بالذنب جعله نصب عينيه، ونسي طاعاته، وجعل همه كله بذنبه، فلايزال ذنبه أمامه، إن قام أو قعد، أو غدا أو راح، فيكون هذا عين الرحمة في حقه، **كما قال بعض السلف**: إن العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة، ويعمل الحسنة فيدخل بها النار، قالوا: وكيف ذلك؟ قال: يعمل الخطيئة فلا تزال نصب عينيه، كلما ذكرها بكى وندم وتاب واستغفر وتضرّع وأناب إلى الله، وذلّ له وانكسر وعمل لها أعمالاً فتكون سبب الرحمة في حقّه، ويعمل الحسنة فلا تزال نصب عينيه يمنّ بها، ويراها، ويعتدّ بها على ربه وعلى الخلق، ويتكبر بها ويتعجب من الناس كيف لا يعظمونه ويكرمونه ويجلونه عليها، فلا تزال هذه الأمور به حتى تقوىٰ عليه آثارها فتدخله النار. . .»[1].

---

(١) مفتاح دار السعادة ١/٢٩٧، ٢٩٨، وانظر مدارج السالكين ١/١٧٧.

أهم المراجع

- **الآداب الشرعية والمنح المرعية**، لابن مفلح، تعليق محمد رشيد رضا، مطبعة المنار، مصر، ١٣٤٨هـ.
- **الأخلاق والسير** لابن حزم، ط٢، دار الآفاق، بيروت، **١٣٩٩**هـ.
- **الاستقامة**، لابن تيمية، ط١، جامعة الإمام، الرياض، **١٤٠٣**هـ.
- **الاعتصام**، للشاطبي، تحقيق: سليم الهلالي، ط١، دار ابن عفان، الخبر، **١٤١٢**هـ.
- **إغاثة اللهفان**، لابن القيم، تحقيق: محمد عفيفي، ط١، المكتب الإسلامي، بيروت ١٤٠٧.
- **إحياء علوم الدين**، لأبي حامد الغزالي، دار الندوة، بيروت.
- **بدائع الفوائد**، لابن القيم، ط٢، مكتبة القاهرة، القاهرة، **١٣٩٢**هـ.
- **تفسير القرطبي** (الجامع لأحكام القرآن)، ط٣، دار الكتب المصرية، القاهرة، **١٣٥٤**هـ.
- **تلبيس إبليس**، لابن الجوزي، تحقيق: خير الدين علي، دار الوعي، بيروت.
- **الحجة في بيان المحجة**، لقوام السنة الأصفهاني، تحقيق: محمد أبو رحيم، ط١، دار الراية، ١٤١١هـ.
- **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، لأبي نعيم، دار الكتب العلمية، بيروت.
- **جامع العلوم والحكم**، لابن رجب، تحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤١١هـ.

- **الرعاية لحقوق الله**، للحارث المحاسبي، تحقيق: عبد القادر عطا، ط٤، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٥هـ.
- **روضة المحبين ونزهة المشتاقين**، لابن القيم، تعليق: أحمد عبيد، مطبعة الترقي، دمشق، ٤٩.
- **الزهد**، للإمام أحمد بن حنبل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٨هـ.
- **الزهد**، لعبد الله بن المبارك، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، دار الباز، مكة المكرمة.
- **سير أعلام النبلاء**، للذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٢هـ.
- **شجرة المعارف والأحوال**، العز بن عبد السلام، تحقيق: إياد الطباع، ط١، دار الطباع، دمشق، ١٤١٠هـ.
- **شرح حديث أبي ذر** «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي»، لابن تيمية، مكتبة الفرقان، القاهرة.
- **شرح حديث «ماذئبان جائعان»**، لابن رجب، مكتبة الفرقان، القاهرة.
- **صيد الخاطر**، لابن الجوزي، تحقيق: علي وناجي الطنطاوي، ط٣، دار الفكر، دمشق، ١٣٩٩هـ.
- **صفة الصفوة**، لابن الجوزي، تحقيق: محمود فاخوري، ط٢، دار المعرفة، بيروت، ١٣٩٩هـ.
- **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، لابن القيم، المطبعة السلفية، القاهرة، ١٣٧٥هـ.
- **فتح الباري**، لابن حجر العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.
- **الفروق**، للقرافي، عالم الكتب، بيروت.
- **الفوائد**، لابن القيم، مطبعة الإمام، القاهرة.

- **قواعد الأحكام في مصالح الأنام**، للعز بن عبد السلام، دار الباز، مكة المكرمة.
- **مجموع الفتاوى**، لابن تيمية، جمع: عبد الرحمن ابن قاسم، ١٣٩٨هـ.
- **مدارج السالكين**، لابن القيم، تعليق: محمد حامد الفقي، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة ١٣٧٥هـ.
- **مفتاح دار السعادة**، لابن القيم، توزيع دار الإفتاء، الرياض.
- **الموافقات**، للشاطبي، تعليق: عبد الله دراز، دار المعرفة، بيروت.

فهرس الموضوعات

المحتويــات **الصفحة**

مقدمة ٣
أهمية الموضوع ٦
القسم الأول: معالم في منهج السلوك والأخلاق ١٣
١ ـ مصدر تلقي السلوك هو الكتاب والسنة ١٥
٢ ـ الوسـطية ٢٣
٣ ـ موافقة النصوص الشرعية والتأدب
مع المصطلحات الدينية ٢٩
٤ ـ مراعاة أحوال المكلفين، وتحقيق
الجانب الواقعي العملي ٣٤
٥ ـ مراعاة تفاوت قدرات الناس في فعل الطاعات ٤١
القسم الثاني: موضوعات سلوكية ٤٩
١ ـ أهل السنة يعلمون الحق ويرحمون الخلق ٥٠
٢ ـ تزكية النفوس ٥٦
أ ـ أهمية الموضوع ٥٦
ب ـ معنىٰ التزكية ٥٧
جـ ـ وسائل تزكية النفس ٥٩
٣ ـ أعمال القلوب ٦٧
أ ـ أهمية الموضوع ٦٧

ب ـ وقفة مع عبودية القلب ٧١
جـ ـ أحكام عبودية القلب) ٧٣
٤ ـ مكائد الشيطان ٧٦
أ ـ أهمية الموضوع ٧٦
ب ـ مداخل الشيطان ٧٧
جـ ـ مكائد خفية ٧٩
١ ـ الغيبـــة ٧٩
٢ ـ ذم النفس ٨٢
٥ ـ الإخلاص والعجب ٨٥
أ ـ عظم منزلة الإخلاص ٨٥
ب ـ مع أخبار المخلصين ٨٦
جـ ـ إخفاء الطاعات عند السلف ٨٨
العجـــب ٩٢
أ ـ معنى العجب وخطره ٩٣
ب ـ سببه وعلاجه ٩٨
أهـم المراجع ١٠٥
الفهـــرس ١٠٩

أ عمود ٣٠٠